الخطاب بين الإخوة في القرآن الكريم

م.د.مقبول علي بشير النعمة*

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/٨/١٢ تأريخ القبول: ٢٠١٨/٩/١٧

تمهيد:

في مفهوم الخطاب

يرجع لفظ (الخطاب) إلى الجذر الثلاثي (خَطَبَ)، ولـ(الْخَاء وَالطَّاء وَالْبَاء) أَصْلانِ، كما يقول ابن فارس، ((أَحَدُهما الكلامُ بين اثنينِ، يُقالُ خَاطبَهُ يُخاطِبُهُ خِطابًا، وَالْخُطبَةُ من ذلك. وفي النِّكَاحِ: الطَّلَبُ أَنْ يُزَوَّجَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ...﴿٢٣٥﴾﴾ البقرة . وَالْخُطْبَةُ: الكَلَامُ المخطوبُ بِهِ. وَيُقالُ: اختَطَبَ الْقَوْمُ فُلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزَوُّجِ صَاحِبَتِهِم. وَالْخَطْبُ: الأَمرُ يَقَعُ ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَ بذلكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ منَ التَّخَاطُبِ والمُرَاجَعَةِ.

وأَمَّا الأَصلُ الآخَرُ فَاختِلَافُ لَونَينِ. قَالَ الفَرَّاءُ: الخَطْبَاءُ: الأَتَانُ التي لها خَطٌّ أَسوَدُ على مَتْنِهَا. وَالحِمَارُ الذَّكَرُ أَخْطَبُ. وَالأَخْطَبُ: طَائِرٌ ؛ وَلَعَلَّهُ يَختَلِفُ عَلَيهِ لَونَان))[1].

ولعله يمكن القول بأن هذين الأصلين بينهما قاسم مشترك هو وجود شيئين متباينين، ففي الأصل الأول (الكلام بين اثنين) نجد وجود اثنين يتكلمان، وفي الأصل الثاني (اختلاف لونين) نجد وجود لونين متباينين.

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

(١) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، د.ط ، ١٩٧٩م.: ١٩٨/٢-١٩٩.

وإذا جمعنا هذا إلى ما قيل من أن ((الخطاب: مراجعة الكلام))[١]، أو إنه: ((كل كلام بينك وبين آخر))[٢] ، على أن ((الخَطْبَ: الأَمر الذي تَقَعُ فِيهِ المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ وَمنهُ قولُهُم: جَلَّ الخَطْبُ، أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن))[٣] أو هو ((سببُ الأمر، تقول: ما خَطْبُكَ))[٤] و((الخُطْبَةُ: مَصْدَرُ الخَطِيبِ، خَطَبَ الخَاطِبُ عَلَى المِنبَرِ، يَخْطُبُ، خَطَابَةً بالفَتْحِ، وخُطْبَة بالضَّمِّ))[٥] و((والخَطَّابُ كشَدَّادٍ: المُتَصَرِّفُ، أَي كَثِيرُ التَّصَرُّفِ فِي الخِطبَةِ))[٦] ... إذا جمعنا هذا إلى ما سبق أمكننا القول بأن الخطاب ينطوي على عناصر عدة، منها:

- توافر طرفين مستقلين، هما المخاطِبُ والمخاطَب.
- توافر أمرٍ مهم يجمعهما.
- وجود تواصل بينهما.
- سياق يجمع كل ذلك.

هذه العناصر يمكن أن نجدها في (الخُطبة) و(الخِطبة) الألفاظ التي تعود إلى الجذر نفسه، التي حدد المعجميون الفرق بين دلالتيهما فقالوا: ((الخَطْبُ والمُخَاطَبَة والتَّخَاطُب: المراجعة في الكلام، ومنه: الخُطْبَة والخِطْبَة، لكن الخُطبة تختصّ بالموعظة، والخِطبة بطلب المرأة ...، وأصل الخِطبة: الحالة التي عليها الإنسان إذا خَطَب، نحو

(١) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط ، د.ت.: ٢٢٢/٤.

(٢) مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م.:٢٩٥.

(٣) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ: مادة (خطب)، ٣٦٠/١.

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٧م: ١٢١/١.

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمّد بن محمّد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت، د.ط، د.ت: ٣٧٢/٢.

(٦) تاج العروس: ٣٧٣/٢.

الجِلسة والقِعدة، ويقال من الخُطْبَة: خاطِبٌ وخَطيب، ومن الخِطْبَة خاطِبٌ لا غير، والفعل منهما خَطَبَ))[١].

ورد لفظ (الخطاب) في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، الأول في قوله تعالى عن النبي داود عليه السلام: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ص، وقد نقل الفراء عن مجاهد أن فصل الخطاب تعني الشهود والأيمان[٢]، كما قيل إنه القضاء وقيل إنه الفهم[٣].

وقد رجح الطبري معنى واسعا لها وهو أن يكون المعنى ((أوتي داود فصل الخطاب في القضاء والمحاورة والخطب))[٤].

والثاني جاء بعد ثلاث آيات من الموضع الأول في سياق القصة ذاتها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ص، ووضع المفسرون معنى (وعزني في الخطاب) في إطار ((مخاطبة المحاجّ المجادل))[٥]

(١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق/بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ: ٢٨٦.

(٢) معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط ١، د.ت: ٤٠١/٢.

(٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م: ١٧٢/٢١، و معاني القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٩هـ : ٩٢/٦، وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩م: ٥٩/٧.

(٤) تفسير الطبري: ١٧٣/٢١.

(٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ: ٨٣/٤.

والثالث في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾ النبأ وقال المفسرون عن (خطابا) هنا إنها بمعنى المخاطبة[1] وحدده ابن عاشور بقوله: ((والخِطابُ: الكلامُ المُوجَّهُ لحاضرٍ لدى المتكلِّم أو كالحاضر المُتضَمِّنِ إخبارًا أو طلبا أو إنشاءَ مدحٍ أو ذمّ))[2].

وهذه المعاني جميعها تدخل في إطار الكلام والمحادثة، أي إنها لم تبتعد عن أصل الدلالة المعجمية بعناصرها التي أشّرها البحث، لكنها اكتسبت في سياقها معنى محددا اقتضاه للمقام. لكن من الملاحظ بوضوح أن القرآن الكريم عدل عن لفظة (الكلام) أو (الحديث) في هذه الآيات إلى لفظة (الخطاب) ، وربما حمَّلَ هذا العدول لفظة (الخطاب) دلالة أوسع من الكلام والحديث ليشمل كل ما يمكن من خلاله توصيل أمر من المخاطِب إلى المخاطَب، فربما كان السكوت أبلغ من الكلام، وربما اختصرت إشارةٌ ما حديث ايام.

وقديماً حضر (الخطاب) في أدبيات العلماء العرب وفي مختلف اتجاهاتها، فقد اهتم علماء الأصول بتحديد مفهومه فقالوا: ((وأمّا الخِطابُ، فهو في اللّغة: مصدرُ خَاطَبَهُ بالكلامِ يُخاطِبُهُ مُخاطَبَةً وَخِطَابًا، وَهُوَ من أَبنيةِ المُفاعَلَةِ، نحو ضَارَبَهُ مُضَارَبَةً وَضِرَابًا، وَليسَ الخِطابُ هُوَ الكَلامُ وَالمُكَالَمَةُ، وَهي تَوَجُّهُ الكَلامِ من كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُما إلى صاحبه، لأنَّا نقولُ خَاطَبَهُ بِالكلامِ، فلو كان الخِطابُ هو الكَلامُ، لكانَ التَّقديرُ: كَالَمَهُ أو كَلَّمَهُ بالكَلامِ، فيكُونُ تَكرارًا أَو تَأكِيدًا، وَالأَصلُ، خِلافُهُ. نَعَم، استُعمِلَ الخِطَابُ فِي الاصطلاحِ بمعنى الكَلامِ، فَصَارَ حَقِيقَةً اصطلاحيَّةً))[3]. وما يبرز في هذا التحديد على نحو واضح تفريقه بين الخطاب والكلام وعلى نحو سبق فيه ما أقرت به الدراسات النقدية الحديثة، إذ

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٣٠٩/٨، وفتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي (ت١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، ١٩٩٢م: ٤٣/١٥.

(٢) التحرير والتنوير (تفسير ابن عاشور)، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية، تونس، د.ط، ١٩٨٤م: ٥٠/٣٠.

(٣) شرح مختصر الروضة، أبو الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري (ت٧١٦هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨٧م: ١/ ٢٥٠.

بيّن أن الكلام خطابٌ، ولكن الخطاب لا يعني بالضرورة الكلام، وإن كان الكلام أحد آليات الخطاب.

وإن كان الطوفي قد فرق بين الخطاب والكلام فإن الإمام الغزالي سبقَ وفرَّقَ بين الخطاب والنصِّ تفريقا ندرك من خلاله عبقرية هذا العالم الجليل وبُعد نظره، يقول في بيانه لحد (النسخ) : ((أما حدُّهُ: فاعلم أن النسخ عبارة عن الرفع والإزالة في وضع اللسان، يقال: نَسَخَت الشمسُ الظلَّ ونَسَخَت الريحُ الآثارَ، إذا أزالتْها. وقد يُطلق لإرادة نَسْخِ الكتاب، فهو مشتَرَكٌ. ومقصودُنا النسخ الذي هو بمعنى الرفعُ والإزالةُ، فنقولُ: حّدُّهُ أنَّهُ الخطابُ الدالُّ على ارتفاعِ الحكمِ الثابتِ بالخطابِ المتقدِّم على وجهٍ لولاهُ لكان ثابتا به مع تراخيه عنه. وإنما آثرنا لفظَ الخطابِ على لفظِ النصِّ ليكون شاملا للفظِ والفحوى والمفهوم وكل دليل، إذ يجوز النسخ بجميع ذلك))[١].

ويتبين من كلامه أنه يرى أن اللفظَ (النص) من الخطابِ، وأن الفحوى والمفهومَ من الخطابِ، وأن كلَّ معنىً وّصَلَ المُخاطَبَ من طرف المُخاطِبِ، ولَهُ ما يدلُّ على ذلك فهو من الخطاب ... ولعلّه أراد بالدليل هنا: (السياق).

وقد حضر (الخطاب) كذلك في مؤلفات المهتمين بتفسير القرآن الكريم وعلومه، فالفرّاء، على سبيل المثال، وفي أحد المواضع التي تحدث فيها عن الخطاب، بيّنَ نوعا من أنواعه فقال: ((وقوله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ طه يكلم الاثنين ثُمَّ يجعل الخطابَ لواحدٍ؛ لأن الكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع. ومثله مما جُعِل الفعل على اثنين وهو لواحد، كقوله: ﴿ ... نَسِيَا حُوتَهُمَا ... ﴿٦١﴾ ﴾ وإنّما نسيه واحد، ألا ترى أَنَّهُ قَالَ لموسى ﴿ ... فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ... ﴿٦٣﴾ ﴾ الكهف))[٢].

وقريبا من ذلك ما فعله الطبري في تفسيره، فنراه يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ ... بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود : ((هذا خطاب منهم لنوحٍ عليه السلام، وذلك أنهم إنما

(١) المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م: ٢٠٧.

(٢) معاني القرآن، الفراء (ت٢٠٧هـ): ٢/ ١٨٠.

كذبوا نوحًا دون أتباعه، لأن أتباعه لم يكونوا رُسلا. وأخرج الخطابَ وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ...﴿١﴾﴾ الطلاق))[1] وهذا من بين مئات المواضع التي بين فيها معاني القرآن الكريم من خلال اعتبار الخطاب.

وهكذا فعل المفسرون جميعا إلى يومنا هذا، فالأمر لم يقتصر على من ذكرناهم.

ونرى في كتب علوم القرآن اهتماما بارزا بالخطاب، إذ حددوه وبينوا أنواعه وأنماطه، فالزركشي على سبيل المثال عقد فصلا كاملا في كتابه البرهان بعنوان (في وُجُوهِ المُخاطَباتِ والخِطاب في القرآن) ذكر فيه أكثر من ثلاثين نوعا من أنواع الخطاب[2]، منها: (خطاب العام المراد به العموم، خطاب الخاص والمراد به الخصوص، خطاب الخاص المراد به العموم، ...الخ). وبنحو هذا فعل السيوطي في كتابه الإتقان[3] ، على أنهما لم يكونا متفردين في هذا، لكن ذكرهما هنا جاء على سبيل المثال لا الحصر.

وعند علماء الغرب ظهر مصطلح الخطاب في أوائل ظهوره في حقل الدراسات اللغوية نتيجة للتفاعلات التي عرفتها هذه الدراسات، لاسيما بعد الآثار التي أحدثها فرديناند دي سوسير في الدراسات اللغوية[4]، وما لبثت الدراسات المختلفة أن شرعت في النظر إلى هذا المصطلح، كل دراسة انطلقت من مرجعايتها المعتمدة، الأمر الذي أدى إلى اكتنافه الكثير من الغموض.

---

(١) تفسير الطبري (ت٣١٠هـ): ٢٩٧/١٥.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: أبو الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٦م.: ٤٥٥-٤٧٣.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط،١٩٧٤م: ١٠٩/٣-١١٩.

(٤) ينظر: الخطاب النقدي عند مصطفى ناصف كتاب ما بعد الحداثة أنموذجا، ورقاء يحيى قاسم حياوي المعاضيدي، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب ، جامعة الموصل، ٢٠٠٦: ١٢

وقد أرجع ميشيل فوكو هذا الإبهام الذي يحيط بتعريف الخطاب إلى ((اختلاف الفهم وتطوراته لدى الباحثين في النظرة إلى الخطاب))[١] معللا ذلك بإعطاء اللسانيين لفظ الخطاب معنى، في حين يعطي المناطقة وأنصار التحليل التواصلي معنى آخر له.

ويمكن القول إن التباين في إعطاء الخطاب مفهوما واضحا ومحددا يرجع أساسا إلى كونه ينتمي إلى أكثر من حقل معرفي واتجاه بحثي في الفكر المعاصر، لذا يمكن أن ينظر إليه من المنظورات الآتية: (اللساني، السيميائي، الاجتماعي التواصلي، الآيديولوجي، التأويلي)[٢] فهو عند اللسانيين _ على سبيل المثال _ يتصف بالانفتاح والابتعاد عن التقييد، فهو عندهم ((الصياغة الشكلية للكلام))[٣] أما الاجتماعيون فيرون أنه ((الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل))[٤]، وعند غيرهما تختلف المنظورات في نظرتها إلى الخطاب[٥].

(١) حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م: ١٠٢، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، د. مؤيد آل صوينت، مكتبة الحضارات، بيروت، ط ١، ٢٠١٠: ٤.

(٢) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٤.

(٣) مقدمة في نظريات الخطاب، ديان مكدونيل، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م: ٢٧، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٤.

(٤) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، د.ط، ١٩٨٨م: ١٦، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٥.

(٥) للوقوف على تعريف كل منظور ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٤–٥، وهناك تعريفات أخرى للخطاب: ينظر على سبيل المثال: معجم المصطلحات الأدبية، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ط، ١٩٨٥: ٨٣، ما الخطاب؟ وكيف نحلله؟، عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م : ٩–١٢، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق مثل من سورة البقرة، د. خلود العموش، عالم الكتب الحديث، إربد، ط ١، ٢٠٠٨ :٢٣

لكن هذه الدراسات بمجملها تنظر إلى الخطاب على أنه ((يمثل جملة من المنطوقات أو التشكلات الأدائية التي تنتظم في سلسلة معينة لتنتج . على نحو تاريخي . دلالة ما، وتحقق أثرا متعينا))[١] .

ونجد أننا إزاء هذه الامتدادات الواسعة لمفهومه وتنوعاته وسط حقول معرفية متعددة، تُكسبه كلٌّ منها صبغة خاصة، بيد أنه يمكننا أن نوجز هنا ما توصلت إليه بعض الدراسات التي اهتمت بالخطاب[٢] مما يتصل بموضوع هذه الدراسة:

١. إن الخطاب وحدة متتالية أو (وحدة لغوية) أكبر من الجملة، وتتسم بالكلية.

٢. يخضع الخطاب لنسق دلالي خاص به ومقنن.

٣. الاتصال قيمة عالية لكل خطاب.

٤. تمثل القصدية الركن الأبرز في تجليات الخطاب ومفهومه.

٥. يمثل الأثر الاجتماعي محورا أساسا لكل خطاب، من خلال اتجاهه إلى التأثير في السامعين.

٦. لا وجود لحد أعلى للخطاب.

٧. المخاطب نوعان: فعلي وضمني.

٨. الخطاب عبارة عما نعبّر عنه بالقول أو بغيره.

وبعد هذا فإن الخطاب يتداخل مع عدد من المفاهيم، فهو – على سبيل المثال – يتداخل مع النص في الدرس النقدي الحديث تداخلا كبيرا يصعب معه أحيانا التمييز بينهما[٣] لكن ثمة من فرّق بينهما، فرأى أن النصَّ ((شكل مغلق له بداية ونهاية))[٤]، وأن الخطاب عملية اتصال تتم في إطارين: لغوي (منطوق أو مكتوب)، وغير لغوي

(١) النص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ : ١٧.

(٢) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٦، وما الخطاب؟ وكيف نحلله؟: ١١.

(٣) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق: ٢٤.

(٤) النص الأدبي من أين وإلى أين، عبد الملك مرتاض:١٨، وينظر: الخطاب القرآني، خلود العموش: ١٩.

(يشمل العادات والتقاليد وغير ذلك) [١]. إذ يمكن القول بأن ((الخطاب = النص + المحذوف من الخطاب))[٢]، أي على التوجه نفسه الذي نحاه الإمام الغزالي قبل مئات الأعوام حينما قال: ((إنما آثرنا لفظ الخطاب على لفظ النص ليكون شاملا للفظ والفحوى والمفهوم وكل دليل))[٣].

وعلى هذا، وبغية الوقوف على الخطاب، فإنه لا يُكتفى بالنظر إلى النص فحسب، بل ينبغي الوقوف على كل ما من شأنه أن يكون قد أوصل فحوى أمر ما من طرف إلى طرف، سواء أكان من داخل النص أم مما يتصل به من سياق ومقام وغير ذلك. وهذا ما سيسعى البحث إلى تطبيقه في وقوفه عند آيات الخطاب بين الإخوة. وهو ما فعله أغلب المفسرين في تفاسيرهم على نحو عام، وما فعله أصحاب علوم القرآن الذين تحدثوا عن الخطاب في القرآن الكريم، فبينوه وصنفوه وقعّدوا له عددا من القواعد.

وثمة تداخل للخطاب مع الحوار والمجادلة والمناظرة، لكن الحوار يستقل في أنه ((مراجعة الكلام بين طرفين مختلفين، مع تقديم الحجج والبراهين لإقناع أحدهما برأي الآخر، أو لتقريب وجهات النظر))[٤] ، والجدال يستقل في أنه ((القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان))[٥] أو هو ((دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة))[٦] ، وتستقل المناظرة في أنها: ((النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب))[٧]. ولا شك في أن الخطاب يختلف عن كل هذه المفاهيم وإن كانت جميعا تدخل بشكل أو بآخر ضمن

(١) ينظر: الخطاب القرآني، خلود العموش: ٢٣.

(٢) النص القرآني من الجملة إلى العالم:٢٥

(٣) المستصفى: ٢٠٧.

(٤) الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام دراسة موضوعية، أحمد محمد الشرقاوي، الموسوعة الشاملة الإصدار الخامس.

(٥) التعريفات، علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ):٤٧.

(٦) التعريفات:٧٤.

(٧) التعريفات: ١٢٧.

مفهوم الخطاب، إذ يمكن القول إن المحاورة والمجادلة والمناظرة خطاب، لكن الخطاب أعم منها جميعا، بل قد لا يكون أيا منها.

إن النص نظام ولكنه نظام يقول نفسه على نحو مخصوص على وفق انتمائه إلى صنف الخطاب، فهو في الخطاب الأدبي ينطلق من مبدأ الأجناس الأدبية، وفي الخطاب اليومي يدور على مبدأ الاتصال النفعي والتداولي، وفي الخطاب القرآني ينطلق من مبدأ الإعجاز ويشتغل في دائرته، ومن هنا يبدو أن الدلالة لا تأخذ معناها مما يقوله النص فقط، ولكن من انتماء النص كذلك(١).

انطلاقا من هذه المسلّمة يمكن أن ندرك ((أن النص القرآني لا يخضع لخصائص أي جنس أو أي نوع قولي ولا لمعايير الكلام الاعتيادي))[٢].

ولم يقف جهد المشتغلين بقراءة الخطاب القرآني عند حدود التفسير بالأثر[٣] وإنما راحوا يتلمسون آفاق الخطاب ودلالاته الممكنة على وفق ضوابط يتطلبها فهم الخطاب القرآني، وهذا الأمر لم يكن ليتم لو لم يكن النص القرآني حمّال أوجه.

وبعد: فإن هذه الدراسة تحاول الالتزام بما يأتي:

١. سيحاول البحث – بغية الوقوف على معاني الآيات القرآنية – الالتزام بضوابط التفسير التي ينبغي الوقوف عندها مما بينه علماء التفسير، وسيحاول الإفادة مما قاله المفسرون في معاني الآيات.

٢. سيعتمد البحث مفهوم الخطاب القائم على اعتماد اللفظ والفحوى والمفهوم وكل دليل يدلّ على انتقال فكرة من طرف إلى آخر في إطار الفهم.

٣. سيعتمد البحث النصوص القرآنية التي تضمنت خطابا بين الإخوة في الدم دون الإخوة في سائر الروابط، ليتماشى البحث مع هدفه المقصود، ومع ما يتطلبه الإطار الأكاديمي من التحديد وتجاوز التوسع وانفتاح الآفاق. فثمة آيات كريمات تضمنت ألفاظا تتعلق

(١) ينظر: اللسانيات والدلالة، منذر عياشي: ١٥، وينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي:١٦.

(٢) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي:١٦.

(٣) ينظر: الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي:١٧.

بالأخوة لكنها لم تقصد أخوة الدم، كما في قوله تعالى[١]: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الأعراف ، فـ ((الأَخُ هُنَا مُستعمَلٌ في مُطلقِ القريبِ، على وَجهِ المجازِ المُرسَلِ ومنهُ قولُهُم: يَا أَخَا العرَبِ))[٢]؛ لذلك فالبحث لم يقف عندها.

المبحث الأول

الخطاب بين ابني آدم

جاء الخطاب بين ابني آدم عليه السلام لصلبه[٣] فيما حكاه القرآن الكريم من القصة التي جرت معهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ۚ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ المائدة. وهي تمثل خطابا جرى بين ابني نبي، وهو أبو البشر.

هذه الآيات من سورة المائدة في سياق مجموعة من القصص سبقتها، وأنها بمجملها جاءت خطابَ مواساةٍ للنبي صلى الله عليه وسلم في أن ((ظُلْمَ الْيَهُودِ، وَنَقضَهُمُ المَوَاثِيقَ وَالعُهُودَ كَظُلْمِ ابنِ آدَمَ لأَخِيهِ. المَعْنَى: إِنْ هَمَّ هَؤُلاءِ الْيَهُودُ بِالفَتكِ بِكَ يَا محمد فقد قتلوا قَبْلَكَ الأَنبياءَ، وَقَتَلَ قابيلُ هابيلَ، والشرُّ قديم))[٤] ، فـ ((كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ، فَلَمَّا كَانَت نِعَمُ اللَّه على محمدٍ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ أَعظَمَ النِّعَمِ؛ لَا جَرَمَ لم يَبعُدِ اتِّفَاقُ الْأَعداءِ عَلَى اسْتخراجِ أَنواعِ المكرِ والكيدِ في حقِّهِ، فَكَانَ ذِكرُ هذهِ الْقِصَصِ تَسليَةً من

(١) وينظر كذلك قوله عز وجل في: الأعراف:٧٣، الأعراف:٨٥، هود: ٥٠، هود: ٦١، وغيرها.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٠١/٨.

(٣) ينظر: تفسير الطبري: ٢٠٩/١٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م: ٦/ ١٣٣.

اللَّه تعالى لرسولهِ صَلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ لَمَّا هَمَّ قَومٌ منَ اليَهودِ أَن يمكُرُوا بهِ وَأَن يُوقِعوا بِهِ آفَةً وَمِحْنَةً))[1]، كما أنه خطاب إلى اليهود ((لتعرف بذلك اليهود وخامة غِبّ غَدْرهم ونقضهم ميثاقَهم بينك وبينهم، وهمَّهم بما همُّوا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإن لك ولهم في حسن ثوابي وعِظَم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتولَ الوافِيَ بعهده من ابني آدم، وعاقبتُ به القاتل الناكثَ عهده عزاءً جميلا))[2].

وقد التفت ابن عاشور إلى مناسبة لطيفة لهذه الآيات مع ما قبلها، مما يبين بعض أحوال الأخوة في القرآن الكريم، قال ابن عاشور: ((والمُناسبةُ بينها وَبينَ القصَّةِ التي قبلها مناسبةُ تَماثُلٍ ومناسَبَةُ تَضَادٍّ. فأَمَّا التَّمَاثُلُ فإنَّ في كلتيهِمَا عَدَمَ الرِّضَا بما حَكَمَ اللَّهُ تعالى، فَإِنَّ بَنِي إسرائِيلَ عَصَوْا أَمرَ رسولهمْ إِيَّاهُمْ بِالدخُولِ إِلَى الأَرْضِ المقدسَةِ، وَأَحَدُ ابنَي آدمَ عَصَى حُكمَ اللَّهِ تعالى بعدَمِ قَبُولِ قُربانهِ لأَنهُ لمْ يكنْ من المُتقِينَ. وفي كلتيْهما جُرأَةٌ على اللَّهِ بعدَ المعصيةِ فَبَنُو إسرائِيل قالوا: فَاذهبْ أَنتَ وربُّكَ، وَابنُ آدَمَ قَالَ: لأَقتُلَنَّ الذي تقبَّلَ اللَّهُ منهُ. وَأَمَّا التضادُّ فإنَّ فِي إحداهما إقدامًا مذمومًا من ابنِ آدَمَ، وَإحجامًا مذمومًا من بني إسرائيلَ، وإنَّ في إحداهُما اتِّفاقَ أَخَوينِ هُما موسى وأَخوهُ على امتثالِ أَمرِ اللَّهِ تعالى، وفي الأُخرى اختلافُ أَخَوَينِ بِالصَّلاحِ والفسادِ))[3].

وبناء على هذا يمكن القول إن هذه الآيات مع ما سبقتها حملت في طيات خطابها للنبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى اختلاف أحوال الأخوة، فقد يكونوا مؤمنين، يعين أحدهما الآخر على طاعة الله، وقد يكون منهم المؤمن وغير المؤمن، وهنا يقوم المؤمن على نصح أخيه طاعةً لله، كما حدث مع هابيل الذي نصح قابيل على ما سيمر معنا.

(١) التفسير الكبير (تفسير الرازي)، أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بالفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ ،١٤٢٠ هـ: ٣٣٦/١١.

(٢) تفسير الطبري:١٠/ ٢٠١-٢٠٢.

(٣) تفسير ابن عاشور: ١٦٨/٦.

وابنا آدم هما لصلبه: هابيل وقابيل، بإجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل[١]، ولعل في ذكر القرآن الكريم لهذه الحادثة التي وقعت معهما إشارة إلى أنه إن كان ابنا آدم لصلبه على هذا النحو من الاختلاف في التقوى وفي السلوك، فما عساه يكون في ذريته البعيدة عنه؟

وقد ذكر القرآن الكريم أنهما ﴿... قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ...﴿٢٧﴾﴾ المائدة. ولم يذكر القرآن الكريم سبب تقديمهما القربان، ولا ما هو، ولا من أيِّهما تُقُبِّل، ولا كيفية قبوله[٢]، وركز على الجانب المهم من فحوى الخطاب وهو (التقوى) التي ستبينها الآيات القادمة.

ابتدأت الإشارة إلى الخطاب الذي دار بين الأخوين من قوله تعالى: ﴿... قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ...﴿٢٧﴾﴾ المائدة، وهذه هي الكلمة الوحيدة التي ذكر القرآن الكريم أن قابيل قالها لهابيل، لكنها شكلت جوهر مجمل خطاب قابيل لأخيه، فهي من خلال ما تضمنته من قسم محذوف، ومن مؤكدات للخبر (اللام الواقعة في جواب القسم ونون التوكيد) دلّت على عزم قابيل على قتل هابيل، عزما لا يداخله التردد.

ولكن هذه الكلمة لم تكن وحدها مجمل الخطاب، بل هي جزء منه، فتصريح قابيل بهذه الكلمة الذي يدلّ على إقدام قابيل على القتل دون خوف، وما رافق التصريح بالقتل من أحداث قبول القربان، وربما مع هيئة قابيل الغاضب الحاسد، كل ذلك شكل مجمل خطاب قابيل لأخيه؛ ولذلك نرى أن جواب هابيل جاء على مجمل خطاب هابيل وليس على نص كلامه.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: ٢٠٩/١٠. وقد رد عدد من المفسرين على من قال إنهما أخوان من بني إسرائيل مثل الرازي على سبيل المثال، إذ يقول: ((وفي الآيةِ أَيضًا ما يدُلُّ عليهِ لأَنَّ الآيةَ تَدُلُّ على أَنَّ القَاتِلَ جَهِلَ مَا يَصنَعُ بِالمَقتولِ حتى تعلَّمَ ذلكَ من عملِ الغرابِ، ولو كَانَ من بنِي إسرائيلَ لمَا خَفيَ عليهِ هذا الأَمر)). تفسير الرازي: ٣٣٨/١١.

(٢) ذُكرت في هذا قصص عديدة، لكنها جميعا في إطار الأخبار. ينظر: تفسير الطبري: ٢٠٢/١٠.

فقد ذكر القرآن الكريم أن هابيل قال: ﴿...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ المائـــدة. وهذا النص يشكل فيما يشكل جوهر خطاب هابيل لقابيل، فهذا النص المبني على جمل عديدة مترابطة، متسلسلة تسلسلا منطقيا، القائم على محاولة ثني القاتل عن إثم القتل، لا موضوع المجادلة حول سبب القتل الذي كان يتوقعه كل من يسمع ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ ، وقد بيّن فيما بيّن هدوء هابيل وبعده عن الانفعال، بل محاولته احتواء انفعال أخيه الذي سيؤدي به إلى إثم القتل بعد أن حمل إثم الحسد، فأخذ يخاطبه بخطاب فيه إطالة ليهدئ من انفعاله، وليستوعب هذا الخطاب جانب العظة الذي يحتاج إلى الحلم والروية والتذكير والتنويع في المضامين.

وأول ما حاوله هابيل هو امتصاص انفعال قابيل، فقال له: ﴿...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المائـــدة، وفي هذا خطاب (مؤكد بالحصر) من هابيل إلى قابيل بأنه فَهِمَ سبب الإقدام على القتل، وأن السبب هو غياب التقوى، الذي على أساسه لم يُتقبل منه، وبسببه كذلك لم يرض بما حكم الله عز وجل، وبسببه دخل الحسد إلى قلبه، مما جعله يقدم بهذه السرعة على إثم آخر هو القتل. وكذلك فيه ((موعظةٌ وَتعريضٌ وَتنَصُّلٌ مما يوجبُ قتْلَهُ. يقولُ: القَبُولُ فعلُ اللَّهِ لا فعلُ غيرِهِ، وهو يتقبَّلُ مِنَ المتقي لا من غيرِهِ. يُعَرِّضُ به أَنَّهُ ليسَ بتقيٍّ ولذلِكَ لم يتقبَّلِ اللَّهُ منه))[1]، وكأنما كان جوهر كلام هابيل: اتق الله، لكنه قاله بطريقة حملت أكثر من خطاب.

ثم حاول تهدئته وإعادته إلى رشده، فتابع قائلا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ المائـــدة. وهنا قسم محذوف كذلك، ليحملَ خطابَ ثقةِ هابيل بنفسه فيما يقول، بمعنى أنه يقول ذلك على سبيل القطع القائم على القناعة، وليس على الخوف أو التهرب أو إبداء الحجج. وبعدها استخدم كلمة ﴿

(١) تفسير ابن عاشور:٦/١٧٠.

بَسَطتَ ﴾ بصيغة الفعل الماضي الذي يدل على الحدوث، وبدلالتها التي تدل على المدّ [١]، وتستعمل مع السهولة ومعاني الجود، فـ((رَجُلٌ بَسِيطُ اليَدَينِ: مُنْبَسِطٌ بِالمَعرُوفِ، وبَسِيطُ الوجهِ: مُتَهَلِّلٌ))[٢] ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ...﴿٦٤﴾﴾ المائدة، ولعل ذلك جاء على سبيل التهكم بفعل قابيل، فبسط اليد يكون بفعل الخير لا بفعل الشر، أو إنه تعريض به، ليقول له إن الله تعالى الذي يبسط يده بالرزق وبالتوبة لا ينبغي أن يقابل بـ (بسط) اليد في الفتك بعباده، فلو سألته التوبَةَ فهو باسط اليد بالتوبة.

وقدم ﴿إِلَىَّ ﴾ على ﴿يَدَكَ ﴾ للتخصيص، بمعنى: حتى إن مضيت في عزمك وكنت أنا المقتول وليس غيري، وذكر اليد دون أن يذكر العزم على القتل والتخطيط له وما إلى ذلك لأنها آلة القتل في الغالب، وإليها ينتهي كل ما يسبقه... وأتى بالجواب ﴿ ...مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ...﴿٢٨﴾﴾ المائدة، فبدأه بما النافية، ثم بالضمير المنفصل، ثم باسم الفاعل المؤكد بالباء ﴿بِبَاسِطٍ ﴾، وكل ذلك ليؤكد ما يصبوا إليه وهو تهدئته، فذَكَرَ أنه لا يحدث نفسه بقتله وإن كان بخاطر ليس إلا، ليس خوفا منه أو عدم مقدرة منه في ذلك، بل لأنه لا يريد أن يفعل ما يكسبه هذا الوصف الشنيع[٣] (باسط اليد بالقتل).

ثم حان بعد تهدئته وقت تذكيره بالله عز وجل، فقال له ﴿...إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ المائدة ، فنسب الخوف إلى نفسه مؤكدا ذلك بـ (إن) المضافة إلى ياء المتكلم، ليبين له أن مناط التقوى التي على أساسها قُبل قربانه، والتي على أساسها كذلك تمكّنَ بثقة من الامتناع عن بسط يده بالقتل، مناط ذلك هو الخوف من الله تعالى، فكأنما أراد أن يقول لأخيه: خف الله تستقم أمورك كلها.

ثم بعد ذلك قال ما لم يكن متوقعا: ﴿... إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ المائدة ليحمل ظاهر هذا النص إرادة من هابيل في

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٢٣.
(٢) لسان العرب (بسط): ٢٥٩/٧.
(٣) تفسير الرازي: ٣٤٠/١١.

أن يؤثَمَ قابيل ويكون مصيره إلى النار[١]، ولكن إن وضعنا هذا النص في مجمل سياق خطاب هابيل ومحاولاته في ثني قابيل، ربما أمكننا القول إن هذا النص حمل المحاولة الأخيرة، فهو خطاب ردع بطريقة منطقية، فكأنما أراد أن يقول له: ها أنا أخوك، أقرب الناس إليك، لا أريد أن أقتلك، لكني أريد لك _ إن قتلتني _ أن تحمل إثمك وإثمي فتكون من أصحاب النار، وهو المصير الطبيعي للظالمين. فـ((عَرَض له وزرَ جريمة القتل لينفِّرَهُ منه، ويزيِّن له الخلاص من الإثم المضاعف، بالخوف من الله ربِّ العالمين، وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان في صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان))[٢].

ويبدو أن خطاب هابيل لأخيه بوجوهه المتعددة أثَّرَ في نفس قابيل، وإنْ لم يردعه عن القتل، فكلمة (طوّعت) في قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المائدة. هي على وزن ((فعَّلت من الطوع))[٣] وهي بمعنى ((الانقيادُ، كَأَنَّ القتلَ كَانَ مُمتَنِعًا عليهِ مُتعاصيًا))[٤]، بسبب خطاب موعظة أخيه، لأنه حينما أقدم كان عازما على القتل. يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة: ((فطوَعت له نفسه قتل أَخيه، دلّت الفاءُ على التفريع والتّعقيب، ودلّ (طَوَّعَ) على حدوثِ تردّدٍ في نفسِ قابيلَ وَمُغالَبةٍ بين دافِعِ الحسدِ ودافعِ الخشيةِ، فعلمنا أَنَ المُفَرَّعَ عنهُ محذوفٌ، تقديرهُ: فتردّد مليًّا، أَو فترصّدَ فُرَصًا فطوَّعَتْ لَهُ نفسُهُ. فقد قيلَ: إِنَّهُ بقيَ زمانًا يترَبَّصُ بأَخيهِ ... والمعنى الحاصلُ من هذا التَّمثيلِ أَنَّ نفسَ قابيلَ سَوَّلَتْ لهُ قتلَ أَخيهِ بعدَ مُمانعَةٍ. وَقد سُلِكَ في قولهِ: فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ مَسلَكَ الإِطنَابِ، وكانَ

(١) ذكر أهل التفسير في هذا عددا من التفسيرات، منها ((إني أريد بالابتعاد عن مقابلة الجريمة بمثلها أن تتحمل إثمي وإثمك، وتلتزم بإثم قتلك إياي، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي، وهذا رأي أكثر العلماء)). التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (تفسير الزحيلي)، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢ ، ١٤١٨هـ: ٦/ ١٥٥، وينظر: تفسير الطبري: ٢١٧/١٠.

(٢) في ظلال القرآن (تفسير سيد قطب)، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ: ٢/ ٨٧٦.

(٣) تفسير الطبري: ٢٢٠/١٠

(٤) البحر المحيط في التفسير (تفسير ابن حيان)، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٤٢٠ هـ: ٢٣٢/٤

مقتضى الإيجازِ أَنْ يُحذَفَ: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ وَيُقتَصَرَ على قولِهِ: فَقَتَلَهُ، لكنْ عُدِلَ عَنْ ذلكَ لقصدِ تفظِيعِ حالةِ القاتلِ في تصويرِ خواطرِهِ الشِّرِّيرةِ وَقساوةِ قلبِهِ، إِذْ حَدَّثَهُ بقتلِ مَنْ كانَ شأنُهُ الرَّحمَةَ بِهِ والرِّفقَ، فلم يكنْ ذَلِكَ إطنَابًا))[1]. ولم يكن (التردد) ليدخل على (نفس قابيل) الذي أفصح عن عزمه الأكيد على قتل أخيه، ولم يكن منه (التعقل) ولا (الخشية) إلا نتيجة لمجمل خطاب هابيل... لكن نفس قابيل الأمارة بالسوء غلبته فأصبح من الخاسرين.

المبحث الثاني

الخطاب بين يوسف وإخوته

جاء الخطاب بين يوسف وإخوته فيما حكاه القرآن الكريم في سورة يوسف من القصة التي جرت معهم، وذلك في قوله تعالى:

١. ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ يوسف

٢. ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا

(١) تفسير ابن عاشور:٦/١٧٢.

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ يوسف.

٣. ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ يوسف

٤. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ يوسف

٥. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف

وهي بمجملها تمثل خطابا جرى بين نبي وإخوته الذين عاشوا في ضلال ثم تابوا بداية جاءت هذه الآيات تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، فأهل مكة كان أكثرهم ((أقاربَ الرّسول عليهِ الصلاةُ والسلامُ وكانوا يُنكرونَ نُبوَّتَهُ ويُظهرونَ العداوةَ الشّديدةَ معهُ بسبب

الحسد، فذكرَ اللَّه تعالى هذهِ القصةَ وبيَّنَ أَنَّ إخوةَ يوسفَ بالغوا في إيذائهِ لأَجلِ الحسدِ، وبِالآخرةِ فإنَّ اللَّه تعالى نصَرَهُ وقوَّاهُ وجعلَهُم تحتَ يدهِ ورايتهِ))[١]، كما أن فيها تحقيقا لانكشاف الكرب ووقوع ما يَعِدُ الله به.

وهذه المرة كذلك حملت الآيات خطابَ ذمٍّ الحسد الذي يكون بين الإخوة، لكن هذه المرة وقع الحسد لنبي من إخوته.

وربما أمكن تبيُّنُ ثلاثة أنواع من الخطاب في هذه الآيات الكريمات:

الأول: هو الخطاب بين إخوة يوسف المجتمعين دون يوسف وأخيه بنيامين، وجاء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ يوسف

حملت هذه الآيات خطاب مكر إخوة يوسف به، وهذا الخطاب جاء على محاور، تضمن المحور الأول إقرار الجميع بوقوع الظلم عليهم من أبيهم، فابتدأ بالقسم المحذوف المقدر (والله ليوسف) لتأكيد مضمون الخبر ((والمرادُ: توكيدُ لازم الخبر إذ لم يكن فيهم من يشكُّ في أَنَّ يوسفَ عليهِ السلام وأَخاهُ أَحبُّ إلى أَبيهم منْ بقيَّتهم ولكِنَّهم لم يكونوا سواءً في الحسدِ لهُما والغَيرَةِ من تفضيلِ أَبيهم إيَّاهُمَا على بقيَّتهم، فأَرادَ بعضهم إقناعَ بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيدِ ليوسف))[٢]، وقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ مع أنهم جميعا إخوة، إشارة إلى سبب ميل يعقوب إليهما؛ إذ كانا أَخَوَين لأمٍّ تسمى (راحيل)[٣] ، وصرّحوا باسم يوسف، ولم يفعلوا ذلك مع بنيامين ﴿وَأَخُوهُ ﴾ ((إشعارا بأن محبة يعقوب عليه السلام له لأجل شقيقه يوسف عليه السلام؛ ولذا لم يتعرضوه بشيء مما أوقع بيوسف

(١) تفسير الرازي:١٨/٤٢٢.

(٢) تفسير ابن عاشور:١٢/٢٢٠.

(٣) تفسير القرطبي:٩/١٣٠.

عليه السلام))[1]، وإشارة إلى أن جوهر مشكلتهم يكمن في ميل يعقوب إلى يوسف على وجه التخصيص، مع كونهم أشاروا بـ ((لَمْحة من إنصاف))[2] إلى محبة يعقوب لجميع أولاده فقالوا: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، أي إنه يحبهم جميعا لكن يوسف أحبّ، مع أنهم العصبة التي تسعى في الرزق وتدفع العدو، ويوسف وأخوه لم يكونا كذلك. واتفاقهم على أنهم عصبة خطاب ثقة منهم وإليهم، فقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أَيْ ((إنَّا لا يُعجزُنا الكيدُ ليوسفَ عليهِ السَّلام وأَخيهِ، فإنَّا عُصبةٌ والعُصبة يهونُ عليهمُ العملُ العظيمُ الذي لا يستطيعهُ العددُ القليلُ))[3].

وقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، خلاصة المحور الأول، الذي شكل المسوغ الذي يمكن بناء خطاب مكرهم عليه، والمقصود بالضلال هنا الضلال غير المقصود، مثل ضلال رجل يمشي فيسلك طريقا لا يعرفها فيضل عن مقصده، أو أن ينسى شيئا من الحق[4]، كما جاء في قول تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ الضحى، وقوله تعالى: ﴿... أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ...۝٢٨٢﴾ البقرة، وبعكسه الضلال المذموم وهو أن تعرف طريق الحق، وتذهب إلى الضلال.

وتناول المحور الثاني الاتفاق على علاج المشكلة، وهنا جاء الاقتراح الأول سريعا، بأقسى ما يمكن أن يعالج المشكلة ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، ((جملةٌ مُستأْنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لأَنَّ الكلامَ المُتقدِّمَ يُثيرُ سؤالًا في نفوس السامعين عن غرض القائلين ممَّا قالوهُ، فهذا المقصودُ للقائلينَ. وإنما جعلوا لهُ الكلامَ السابقَ كالمقدِّمةِ لتتأَثرَ نفوسُ السامعينَ فإذا أُلقيَ إليها المطلوبُ كانتْ سريعةَ الامتثالِ إليهِ. وهذا فنٌّ من صناعةِ الخَطابةِ أَن يَفتَتِحَ

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ: ٣٨١/٦.

(٢) تفسير الشعراوي– الخواطر، محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٧م:٦٤٦٨/١١.

(٣) تفسير ابن عاشور:٢٢١/١٢.

(٤) تفسير الشعراوي:٦٤٦٩/١١.

الخطيبُ كلامهُ بتهيئةِ نفوسِ السامعينَ لتتأثَرَ بالغرضِ المطلوبِ. فإنَّ حالةَ تأثرِ النفوسِ تُغْني عنِ الخطيبِ غِناءَ جُمَلٍ كثيرةٍ من بيانِ العللِ والفوائدِ))[١] و﴿ ٱقْتُلُواْ ﴾ فعل أمر مسند إلى واو الجماعة، ليصدر الأمر بالقتل من الجميع ولينفذه الجميع.

أما الاقتراح الثاني فجاء ليشير إلى فريق كان يعارض فكرة القتل فقيل إرضاءً لهم: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، أي النفي. والطرح: رميُ الشيء وإلقاؤه بعيداً[٢]، وتنكير (أرضا) وإخلاؤها من الوصف، للإبهام، أي: في أرض مجهولة، لا يعرفها الأب، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه[٣]. أي: ((انبذوهُ كالشيءِ اللُّقَا الذي لا قيمةَ له في أَرضٍ مجهولةٍ بعيدةٍ عن مساكننا أَو عن العمرانِ، بحيثُ لا يهتدي إلى العودةِ إلى أَبيهِ سبيلًا إِنْ هُوَ سَلِمَ فِيهَا مِن الهلاكِ))[٤]، وهما (أي: القتل والنفي) ((قريبٌ من قريب. فطرحُه في أرض نائية مقطوعة مفضٍ في الغالب إلى الموت))[٥].

وهنا جاء المحور الثالث الذي مثّله صوت يحاول إيقاف المجتمعين عن الذهاب برأيهم بعيدا، واستدراجهم إلى حلّ يُسكت ثورتهم، ويحقق السلامة ليوسف: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ يوسف، وَهَذَا القائلُ ((أَحدُ الإِخوةِ ولذلكَ وُصِفَ بِأَنَّهُ منهم. والعدولُ عَنِ اسمهِ العَلَمِ إلى التنكيرِ والوَصفيةِ لعدمِ الجدوى في معرفةِ شخصهِ وإنما المهمُّ أَنَّهُ من جماعتِهِمْ))[٦].

---

(١) تفسير ابن عاشور:٢٢٢/١٢.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (تفسير سيد طنطاوي)، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ١٩٩٨: ٣٢٣/٧.

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ،١٤١٨هـ : ٦/ ١٥٥.

(٤) تفسير القرآن الحكيم أو تفسير المنار(تفسير محمد رشيد رضا)، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٩٠م: ٢١٦/١٢.

(٥) تفسير سيد قطب: ١٩٧٣/٤.

(٦) تفسير ابن عاشور: ٢٢٤/١٢.

وردّه على رأي القتل والنفي بـ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ربما يشير إلى أمرين: الأول أن الرأي القائل بطرح يوسف أرضا كان القصد منه قتل يوسف، ولكن بطريقة ترفع عنهم وتتجاوز عبء قتله؛ ولذلك جاء جوابه متضمنا القتل فقط، والآخر أن القائل ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ربما كان مستمعا لحوار الإخوة، وربما كان يأمل منهم أن يتوصلوا إلى رأي بعيد عن القتل، ولكن لما رأى أنهم أجمعوا على قتله جاء تدخُّله بصرفهم مباشرة عن الأمر ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ ثم أخذ ((يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب؛ فلم يقُل لهم (لا تقتلوه)، ولكنه قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وفي نطقه للاسم تحنين لهم))[1].

ثمّ استكمل خطابه لإخوته بما يحصل من خلاله على أمرين: الأول هو الحفاظ على سلامة يوسف، والآخر هو قناعة إخوته بأنه معهم لكي يستقبلوا رأيه من غير شك في أمره، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ يوسف، فرأى أن يُبعَدَ ولكن بشرط الحفاظ على سلامته، وأفضل طريقة لذلك كانت إلقاؤه في الجب؛ لأنه أسلم لحياته من الحيوانات المفترسة، إلى حين قدوم السيارة الذين لا شك في أنهم سيمرون على الجُبِّ لأنه أحد النقاط الرئيسة التي تحدد لهم خط سيرهم، ((وإنما قالَ القائلُ هذا حتى لا يحتاجُوا إلى حملهِ إلى موضعٍ بعِيدٍ ويحصلُ المقصودُ، فإنَّ مَنِ التقطَهُ مِنَ السيارةِ يحملهُ إلى موضِعٍ بعيدٍ، وكانَ هذا وجهًا في التدبيرِ حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأَنفُسهم، فربما لا يأْذن لهم أَبوهم، وربما يطلعُ على قصدهم))[2]. وهذا الرأي ((أَمثلُ مما أَشار به الآخرونَ مِنْ قتلهِ أَو تركهِ بفيفاءَ مُهلكةٍ لأَنهُ يحصُلُ بهِ إبعادُ يوسفَ عليهِ السلامُ عن أَبيهِ إبعادًا لا يرجى بعدهُ تلاقيهما دونَ إلحاقِ ضُرٍّ الإعدامِ بيوسفَ عليهِ السلامُ، فإنَّ التقاطَ السيارةِ إياهُ أَبقى لهُ وَأَدخلُ في الغرضِ من المَقصودِ لهم وهو إبعادهُ، لأَنهُ إذا التقطَهُ السيارةُ أَخذوهُ عندهم أَو باعوهُ فزادَ بعدًا على بُعدٍ))[3]. وقال لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ((تعريضٌ بزيادةِ التريثِ فيما أَضمروهُ لعلهم يرونَ

(١) تفسير الشعراوي: ١١/ ٦٨٧٣

(٢) تفسير القرطبي: ١٣٣/٩.

(٣) تفسير ابن عاشور:٢٢٦/١٢.

الرجوعَ عنهُ أَولى من تنفيذِهِ؛ ولذلك جاءَ في شرطِهِ بحرفِ الشرطِ وهو إِنْ إِيماءً إِلى أَنَّهُ لا ينبغي الجزمُ بهِ، فكانَ هذا القائلُ أَمثلَ الإِخوةِ رأْيًا وأَقربَهم إِلى التقوى))[1]

وهكذا يتبين أن الخطاب بين إخوة يوسف المجتمعين حمل معه ما يشير إلى تعصّبهم وتسرّعهم، وسرعة تحولّهم من رأي إلى رأي؛ ليدل كل ذلك على حالة الضلال التي كانت تسيطر عليهم، وافتقارهم إلى الحلم والحكمة، على الرغم من أنهم (عصبة) كما يدّعون.

الثاني: هو الخطاب بين يوسف وإخوته، وجرى ذلك على مرحلتين:

المرحلة الأولى: قبل أن يعلم إخوة يوسف أن (العزيز) هو يوسف. وكان ذلك في مشهدين:

المشهد الأول: وهو الذي يحكي قدومهم الأول على مصر، وجاء ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢ ﴾ يوسف

من ههنا يبدأ الخطاب بين يوسف وإخوته، بعد مضي عشرات السنوات على المكر به، وقد تغير الحال فيها إلى غير ما كان عليه الحال ... يوسف الآن أمين خزائن مصر، والأمصار تعيش سنوات القحط، وإخوة يوسف اضطرهم الجوع للوقوف على باب أمين خزائن مصر يسألونه الميرة، وبدأ وعد الله ليوسف بالتحقق، الوعد الذي ذكره الله تعالى في بداية السورة: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ ﴾ يوسف

فالله تعالى أوحى إلى يوسف بكيفية ما وهو في لُجّة كربته بما ((يدلُّ على أَنَّ اللَّـهَ سيخلصهُ من هذهِ المصيبةِ وتكونُ لهُ العاقبةُ على الذين كادوا له، وإِيذان بأَنهُ سيؤانسهُ في وحشةِ الجُبِّ بالوحيِ والبشارةِ، وبأَنهُ سينبئُ في المستقبل إِخوتهُ بما فعلوهُ معهُ، كما تؤذِنُ بِهِ نُونُ التَّوْكِيدِ إِذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكُّنهُ من إِخوته لأَنَّ الإِنباءَ بذلكَ لا يكونُ إِلا في حالِ تمكنٍ منهم وأَمنٍ من شرهم ... وجملةُ

(١) تفسير ابن عاشور:٢٢٦/١٢.

(وهم لا يشعرون) في موضع الحال، أَي لَتُخبرنهُم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أَنَّكَ أَخوهم، بل في حالة يحسبونَهُ مطَّلعًا على المُغيَّبَاتِ مُتكهِّنًا بها))[1]. وهنا يبدو أن يوسف عليه السلام بدأ يستشعر بدء وقوع ما وعده الله تعالى إياه، ومن هنا بدأ يُعدُّ لخطاب يرسله إلى أبيه وإلى أخيه وإلى إخوته، وإلى عامة الناس على سبيل الدعوة إلى الله تعالى، سيظهر أثره حينما يرفع أبويه على العرش.

ومما بدأ به إخوته خطابا يؤدي إلى استدراجهم ليواجهوا درسا تطبيقيا، يعرّفهم من خلاله أنه لا يكون إلا ما قدّر الله أن يكون، وأن اللهَ أسرعُ مكرا وهو خير الماكرين، وأنهم ظلموه وظلموا أباهم وظلموا أنفسهم. وأول ما فعله أنه استبقاهم على جهلهم به، ثم إنه أكرمهم وجهزهم بجهازهم، ليمثل خطاب حسن النية تجاههم في بداية خطاب سيستمر معهم. ثم أراد أن يرسل خطابا إلى أبيه يعقوب عليه السلام يحاول من خلاله استدراجه لتقبُّل عودته إلى أحضانه، فأراد أولا أن يحفز ذهنه باستذكار حالة يوسف من خلال حالة مماثلة مع بنيامين، فطلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ...﴿٥٩﴾﴾ يوسف والذي ((اقتضى طَلَبَهُ للأَخِ من أَبيهِم مُفاوضتُهُ لهم بِالسؤَال عن أَخبارهم، فلمَّا ذكَروا إيثارَ أَبيهم لهُ عليهم بمحبَّتِهِ إيَّاهُ معَ حكمتِهِ؛ أَظهَرَ أَنَّهُ يُحبُّ أَن يراهُ وأَنَّ نَفسَهُ متطلِّعةٌ إلى علم السبَبِ في ذلك، وكان غرضه في ذلك التوصل إلى حصولهِ عنده، وكان قد خاف أَنْ يكتموا أَباهُ أَمرَهُ إنْ ظَهَرَ لهم أَنَّهُ يوسف، وأَن يتوصلوا إلى أَن يحُولوا بينهُ وبينَ الاجتماعِ معهُ ومع أَخيه، فأَجرى تدبيرهُ على تدريجٍ لِئَلَّا يهجُمَ عليهم ما يشتَدُّ اضطرابُهُم معه))[2] هذا الخطاب أراد يوسف أن يحملَهُ أخوتُه إلى أبيه على أتمّ وجه؛ لذلك حمّلهم من خلال ما خاطبهم به من خطاب ترغيب وترهيب، ((أَمَّا الترغيبُ: فهو قَوله: أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ، وأَمَّا الترهيبُ: فهو قوله: فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ وذلك لأَنهم كانوا في نهايةِ الحاجةِ إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيلُهُ إلَّا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده

(١) تفسير ابن عاشور:١٢/٢٣٤.

(٢) أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الجصاص (ت٣٧٠هـ): ٤/٣٩٠.

كان ذلك نهايةَ الترهيب والتخويف))[١]، ويبدو أن إخوة يوسف أدركوا اهتمام يوسف بهذا الأمر، ولكنهم في المقابل يعرفون خطورة عرض هذا الطلب على أبيهم؛ لذلك وعدوه بتوصيل الطلب ولم يعدوه بتلبيته: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾.

ثم أراد يوسف أن يفتح لإخوته باب العودة إليه قبل أن يذهبوا من عنده، فأمر فتيانه قائلا[٢] :﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يوسف، وقد تحقق له ما أراد.

المشهد الثاني: وهو الذي يحكي قدومهم الثاني على مصر، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ يوسف

وههنا لما عاد إخوة يوسف بدأ بخطاب الأهم من بين إخوته: أخيه بنيامين، وأول ما قدّم إليه كان خطاب طمأنته ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ليجعله في حالة من

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ٤٧٨.

(٢) ذكر المفسرون آراء عدة حول مقصد يوسف من جعل البضاعة في رحال إخوته، ولكنها جميعا تجتمع في رغبة يوسف في عودة إخوته إليه. ينظر على سبيل المثال: تفسير الرازي: ١٨/٤٧٩.

الطمأنينة، تمكنه من تقبّل ما سيأتي من أحداث ومن استيعابها، ((وأُطلقَ الإيواءُ هنا مجازًا على الإدناءِ والتقريب كأَنَّهُ إرجاعٌ إلى مأْوى))(١)، وكان هذا الخطاب كافيا ليكشف يوسف لبنيامين عن نفسه بخطاب مختصر مباشر هامس﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾. وبقوله هذا يقوم بـ((تهيئة لنفسِ أخيهِ لتلقِّي حادث الصُّواع باطمئنانٍ حتى لا يخشى أَنْ يكون بمحَلِّ الرِّيبَةِ من يوسف عليه السَّلام))(٢).

أما باقي إخوته فقد كانوا بحاجة إلى خطاب من نوع آخر، خطاب يهزهم ويفقدهم صوابهم، ومن ثم يمكن استدراجهم واستنطاقهم وإقرارهم بحقيقة ما جرى.

وأول ما بدأ به بعد أن دبر لهم مكيدة الصواع هو أن اتهمهم بالسرقة على رؤوس الأشهاد: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾فنزل عليهم هذا الاتهام كالصاعقة؛ إذ إنهم من بيت كريم، والاتهام جرى على ملأ من الأقوام المتوافدين على مصر، كما أنهم بأمس الحاجة إلى العودة إلى أبيهم، بأخيهم وبالطعام؛ لذلك سارعوا إلى تأكيد نفي السرقة عنهم: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ و كانوا مستعدين لأي صفقة تبرئ ساحتهم؛ فوقعوا في دائرة المكر الذي قام به يوسف، وهو أن يقرروا هم بألسنتهم حكما يؤدي إلى تسليم بنيامين ليوسف: ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

واستمر يوسف بخطابه مع إخوته القائم على أن الذي يخاطبهم هو (العزيز)، وتمثل هذا الخطاب بما قام به من البدء بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخراج الصواع من متاع أخيه بنيامين، في اتهام له بالسرقة بالدليل المشهود.

وهنا أسقط في أيديهم، وسرعان ما اتفقوا جميعا على درء التهمة عن أنفسهم وعن أبيهم، على أن يتهموا في المقابل أخاهم بنيامين، وقدموا خطاب دفاعهم، وفيه دليل أرادوه منطقيا على قيامه بالسرقة، وهو ذاته يصلح دليلا يشير إلى ابتعادهم عن الأفعال

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٦/١٣.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٧/١٣.

المشينة، ويعرّض بيوسف وأخيه، وربما بأمهما: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ... ﴿٧٧﴾ ﴾.

هذا وأن سياق تحليل الخطاب على النحو الذي قدمه البحث يرجح أن القول ﴿ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ لم يكن مما صرح به إلى إخوته، بل كان مما حدث به نفسه، أي إن جملة: قال أنتم شرٌّ مكاناً، تفسير للضمير فِي ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ وَالإسرار، على هذا الوجهِ، مستعمَلٌ في حقيقتهِ، وهو إخفاء الكلام عن أَن يسمعهُ سامعٌ. وجملةُ: ولم يبدها لهم، قيل هي توكيدٌ لجملةِ: فأسرَّها يوسف[1].

وبعد أن فشل خطاب الدفاع لجأوا إلى خطاب الاستعطاف ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ وهم بذلك نادوا يوسف بـ يَٰٓأَيُّهَا لتدل بمجملها على نداء البعيد، في إشارة إلى ارتفاع مقامه ليفتتحوا خطابهم بتمجيده ، ونادوه بمنصبه: ٱلۡعَزِيزُ في إشارة إلى أنهم يخاطبون رجلا يملك صلاحيات تخوله إجابة طلبهم، ((ووصفوا أباهم بثلاثِ صفاتٍ تقتضي الترقيقَ عليه، وهي: حنان الأُبوَّةِ، وصفةُ الشيخوخةِ، واستحقاقُهُ جبْرَ خاطرهِ لأَنهُ كبِيرُ قومهِ أَو لأَنهُ انتهى في الكبرِ إلى أَقصاه))[2] . وذيلوا خطابهم بـ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ليبقى الإحسان آخر ما يلامس سمعه فيتخذه فعلا في الإحسان إليهم.

لكن هذا الخطاب فشل كذلك، ولقي من يوسف خطاب الحزم : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ فتكلّم بصيغة الجمع ﴿نَّأۡخُذَ ﴾ في إشارة إلى أنه ينفذ حكم قوانين مصر، ولا ينبغي أن يستعمل صلاحيات خاصة في أمور كهذه.

﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور:١٣/٣٥.

(٢) تفسير ابن عاشور:١٣/٣٦.

﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ يوسف

ولمّا رأوا حزم العزيز اتجهوا إلى الاختلاء بأنفسهم للاتفاق على الخطاب المناسب الذي يعودون به إلى أبيهم، وهذا الاجتماع يذكرنا بالاجتماع الأول الذي خططوا فيه للمكر بيوسف، ولكنه هذه المرة مختلف، إذ إنه اجتماع العصبة التي أُسقطَ في يدها، والتي تحاول تجاوز المكر الذي حاق بها؛ لذلك فقد ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ مستسلمين لرأي كبيرهم الذي شكل فحوى الخطاب﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ ﴾، مبتدئا بسؤال تقريري يهيئهم لاستقبال رأيه الحـــازم ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمُونِي يُوسُفَۖ ﴾ ورأيه الحازم هو إرسال خطاب إلى أبيهم، قائمٍ على تطبيقٍ عملي يقضي ببقاء كبيرهم في مصر قربَ أخيه، يكون ممهّدا لتقبل يعقوب لفحوى الخطاب الإخباري الذي يبين قضية بنيامين، على أن يبدأ بخبر السرقة مؤكَّدا ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ ﴾ ، ثم بإقرارهم بأن ثمة مشكلة ما حدثَتْ لا يعرفون لها تفسيرا، وأن بنيامين قد يكون بريئا ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴾ ، ثم بتقديم الدليل على صدق دعواهم ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

ويبدو أن يعقوب عليه السلام لم يصدّق دعواهم، وهنا اجتمع خطاب خبر بنيامين مع الخطاب الذي سبق وأرسله يوسف، الذي أراد فيه أن يحفز ذهنه باستذكار حالته، ثم حزم أمـــره بإرســـال أولاده بمهمـــة البحـــث عـــن ولديـــه ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ...﴿٨٧﴾ ﴾ يوسف.

محمّلا إياهم خطابا عقديا قائما على النهي (لا تيأسوا)، ومذيلا بجملة اسمية بدلالتها على الثبوت والدوام، مؤكدة بـ (إن) وبالقصر: ﴿ ...وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ يوسف ، لتكون وجهة هذا الخطاب مفتوحة إلى كل من يهمه الأمر، ولكل أمر يستقبله المرء، ولا يقتصر على إخوة يوسف، في أمرهم المخصوص هذا.

المرحلة الثانية: التعرُّف على يوسف. وجاء ذلك في المشهد الذي يحكي قدومهم الثالث إلى مصر، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ يوسف.

لقد دخلوا على يوسف دخول من يطلب حاجة من الملك؛ لذلك قدموا له خطاب الحاجة، فبدأوا يتفخيم مكانه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾، ثم بترقيق حالهم[١] استعطافا له، ((يتوسلونَ إلى مطلوبهم بجميع الطرائق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورِقَّة الحال وقلة المال وشدة الحاجةِ، ممَّا يُرقِّقُ القلب))[٢] فذكروا عموم بلواهم ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾، وقلة حيلتهم ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾، ثم عرضوا طلبهم الذي تضمن أمرين: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ الأول: الميرة، وقد قدموها أولا وطلبوها مباشرة، على طريقة تقديم الأسهل في الطلب، أو طلب الصعب على طريقة التدرج من الأسهل، الثاني: إعادة بنيامين، وقد طلبوه بطريق التعريض[٣]، ليخاطبوا فيه نباهته ومكانته بوصفه عزيز مصر. وذيلوا طلبهم بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، والتصدق معناه التفضل مطلقا[٤]، ليكون آخر ما يطرق سمعه من كلامهم فيتخذه فعلا في رده إليهم، و((هذا من معاريض الكلام، لأنهُ لم

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: ٧٠٥٧/١١.

(٢) تفسير الرازي:٥٠٢/١٨.

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور:٤٧/١٣.

(٤) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ: ١٧٥/٣.

يكن عندهم أنه على دينهم؛ لذلك لم يقولوا: إنَّ الله يجزيك بصدقتك، فقالوا لفظًا يوهمهُ أَنَّهُم أَرادوهُ، وهم يَصِحُّ لهم إخراجهُ بالتأويل))[1].

وهنا جاء خطاب الجواب من يوسف ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ وهو يتضمن أمرين: الأول: كشف أمرهم على طريقة التعريض التي استخدموها في خطابهم ولكن بصيغة الاستفهام، و((الاستفهامُ مستعمَلٌ في التوبيخِ. و(هل) مفيدةٌ للتحقيقِ لأَنها بمعنى (قد) في الاستفهام، فهو توبيخٌ على ما يعلمونه محققا من أفعالهم مع يوسف عليه السلام وأَخيهِ، أَي أَفعالهم الذميمةَ بقرينَةِ التوبيخ، وهي بالنسبةِ ليوسف عليه السلام واضحَة، وأَما بالنسبة إِلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به مع أَخيه يوسف عليه السلام من الإِهانة التي تنافيها الأُخوَّةُ))[2]. ثم التمس لهم العذر وآذن لهم بالعفو عنهم ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ ((وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكأنه يلتمس لهم العذر، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقولهم، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه . . . وقيل: نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم))[3].

وهنا أدركوا بأنه يوسف، لأنه خاطبهم مخاطبة العارف بأمرهم، وإن كان على طريقة التعريض، ثم إنهم كانوا محمّلين بوصية والدهم (النبي) الذي كلّفهم بالبحث عن يوسف وأخيه، وصية الواثق من العثور عليهما. وقد أغراهم العذر الذي قدمه لهم يوسف بالإفصاح عن سؤالهم التقريري دون تردد ولا خوف ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ وقد قالوا ذلك لأن الخطاب وصَلَهم، فقد ((استشعروا من كلامهِ ثم من ملامحه ثم من تفهُّمِ قولِ أَبيهم لهم: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضيُّ من كلامه فعرفوا أَنه يتكلم مُريدًا نَفسَهُ))[4]. وجاء جواب يوسف بخطاب مباشر وسريع،

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٤/٩.

(٢) تفسير ابن عاشور:٤٧/١٣.

(٣) تفسير سيد طنطاوي: ٢٣٤٥.

(٤) تفسير ابن عاشور: ٤٨/١٣-٤٩.

مجرد عن التأكيد ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ لأن المسألة انكشفت ولم يبق إلا الإقرار. ثم أضاف ﴿ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ وهو خبر ((مستعمَلٌ فِي التعجيب من جمْعِ اللهِ بينهما بعد طول الفرقةِ))[١]، وبعد الإقرار بدأ يوسف بإدخال المضامين الدعوية في خطابه، التي تستهدف إخوته وجميع من يطلع على تفاصيل القصة، فقال: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ فأكد على أن الفضل في تفريج كربته يعود إلى الله تعالى، لا بسبب تخطيطه ولا بسبب مكره، ولا بسبب حظه الذي أوصله لأن يكون عزيز مصر، إنما هو من فضل الله وحده. ثم تابع بما يتوجب على البشر فعله، ليحثهم على العمل وليحترس من أن يفهموا كلامه على وجه التواكل لا على وجه العمل ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فـ ((يوسف عليه السلام اتقى الله وصَبَرَ، وبنيامينُ صَبَرَ ولم يعص الله فكان تقيًا. أَراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائلَ التعرُّضِ إلى نِعَمِ الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلُّقِ بالصبر تعريضًا بأَنهم لم يتقوا الله فيه وفي أَخيه ولم يصبروا على إِيثار أَبيهم إِياهما عليهم. وهذا من أَفانين الخطابة أَن يغتنم الواعظُ الفرصةَ لإِلقاءِ الموعظَةِ، وهي فرصة تأَثُّرِ السامع وانفعالهِ وظهور شواهد صدقِ الواعظِ في موعظتهِ. وذكرُ المُحسنينَ وَضعٌ للظاهر موضعَ المُضمرِ، إِذ مقتضى الظاهر أَن يقالَ: فإِن الله لا يُضيعُ أَجرهم. فعدلَ عنه إِلى المحسنينَ للدلالةِ على أَنَّ ذلك من الإِحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هوَ وأَخوهُ. ثمَّ إِنَّ هذا في مقام التحدُّث بالنعمة، وإِظهارُ الموعظة سائغٌ للأَنبياء لأَنه من التبليغ))[٢]

وبعد هذه الموعظة البليغة كان لا بد للإخوة من خطاب يقرّون فيه بذنبهم، ويُظهرون ندمهم، وكان مقتضى مقام الندم أن يذكروا الله وفضله أولا ثم يعترفوا ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾.

أما يوسف فقد أجاب بخطاب الكريم، فقد تنازل عن حقه أولا ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ **أي:** ((لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم. وأصل التّثريب: الإفساد. يقال: ثرّب

(١) تفسير ابن عاشور: ١٣/٤٩.

(٢) تفسير ابن عاشور: ١٣/٤٩.

علينا، إذا أفسد))[1]. ثم دعا لهم بالمغفرة ثانيا ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

ثم حمّل إخوته خطاب الفرج لأبيه، الذي يتضمن إشارة حسية (قميص يوسف الملكي) ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ و((فائدةُ إرساله إلى أبيه القميصَ أَنْ يثقَ أَبوهُ بحياتهِ ووجودهِ في مصر، فلا يظنُّ الدعوةَ إلى قدومه مكيدةً من ملك مصر، ولِقصدِ تعجيل المسرة لهُ. والأَظهر أَنَّهُ جعلَ إرسال قميصه علامةً على صدق إخوته فيما يبلِّغُونهُ إلى أَبيهم من أَمر يوسف عليه السلام بجلبهِ، فإن قمصان الملوك والكبراءِ تنسجُ إليهم خصيصًا ولا توجدُ أَمثالُها عند الناس، وكان الملوكُ يخلعونها على خاصَّتهم، فجعلَ يوسف عليه السلام إرسالَ قميصه علامةً لأَبيه على صدق إخوته أَنهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبرِ صدقٍ))[2]. فهذا القميص هذه المرة قميص الصدق، لا قميص الكذب الذي جيء به إليه من قبل.

ثم بدأ – وبأمر الله تعالى – يعد لواقعة تحقق رؤياه التي كان قد أخبر بها أباه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ يوسف فطلب من إخوته إحضار أهله أجمعين ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ثم حان موعد تحقق الرؤيا: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ ...﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف وأراد يوسف استثمار هذه اللحظة في الدعوة إلى الله، وبيان أنه تعالى هو المتصرف بالمقادير، فاتجه إلى أبيه يخاطبه، وهو يُسمعُ بخطابه هذا إخوتَه والحاضرين جميعا وكل من يتناهى إلى سمعه خطابه هذا، فقال: ﴿...يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ): ٢٢٢.

(٢) تفسير ابن عاشور:٥١/١٣.

وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف فبين أن مكامن الشر في اتباع هوى النفس واتباع الشيطان، وأن مكامن الخير في تقوى الله، وأن المصير الحقيقي هو أن يموت الإنسان مسلما ويكون مع الصالحين.

وهكذا نرى أن خطاب إخوة يوسف بعضهم بعضا بغياب يوسف وأخيه، والخطاب بينهم وبين يوسف قد تنوع واختلف بتنوع أنواع الخطاب واختلافه ومراحله وسياقاته، وأن خطاب يوسف لإخوته كان ثابتا، يتّجه إلى الدعوة إلى الله تعالى، وإنْ اختلفت مضامينه.

المبحث الثالث

الخطاب بين موسى وهارون

حكى القرآن الكريم خطابا بين موسى وأخيه هارون تضمنته الآيات القرآنية الكريمة الآتية:

١. ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ ﴾ الأعراف

٢. ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ ﴾ الأعراف

٣. ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤ ﴾ طه.

وهي تمثل خطابا جرى بين أخوين نبيّين، كُلفا بمهمة دعوية.

ويمكن تبين مرحلتين جرى فيهما الخطاب:

المرحلة الأولى: قبيل ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وقد ذُكر هذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ ﴾ الأعراف، ويتبين هنا أن الخطاب كان موجها من موسى إلى هارون، يتضمن مجموعة من الأوامر، وهارون لم

يجبه ولكنه نفذ الأوامر في خطابٍ موافقةٍ منه، قائمٍ على التنفيذ دون التصريح، أو أن القرآن الكريم تجاوز ذكر خطاب الموافقة لوجود ما يدل عليه في سياق القصة.

وقد جاء ذكر خطاب موسى لهارون في آية واحدة مع ذكر وعد الله لموسى، في إشارة إلى أن موسى خاطب هارون مباشرة بعد تلقيه وعد الله؛ لذلك جاء خطابه موجزا، جامعا لمجموعة من الوصايا العامة، النابعة من مخاوف موسى التي اختزنها من خلال معرفته بقومه.

قال موسى لهارون أولا ﴿ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي ﴾ وهو خطاب التكليف، موجه إلى هارون، وهو موجه كذلك إلى بني إسرائيل؛ لأنهم الرعية المعنيون بأمر الخلافة. وقال في ﴿فِي قَوۡمِي ﴾ مع العلم بأنهم قوم هارون كذلك؛ ربما كان في ذلك إشارة إلى هارون للاهتمام بهذه الأمانة أكثر، لأنها أمانة تختص بغيره، ولو قال له: اخلفني في القوم أو في قومك، لكان شأن الأمانة مما يتصل بهارون.

ثم ألزمه بالسياسة المناسبة لخلافته في بني إسرائيل ﴿ وَأَصۡلِحۡ ﴾ وهي سياسة تدور ((حول محور الإصلاح، وهو جعلُ الشيءِ صالحًا، فجميعُ تصرفات الأمة وأحوالها يجبُ أَن تكون صالحةً، وذلكَ بأَن تكون الأَعمالُ عائدةً بالخيرِ والصلاحِ لفاعلها ولغيرِهِ، فإن عادتْ بالصلاح عليه وبضدِّه على غيره لم تعتبر صلاحًا، ولا تلبث أَن تؤول فسادا على من لاحتْ عنده صلاحًا، ثم إذا تردَّدَ فعلٌ بين كونه خيرًا من جهةٍ وشرًّا من جهة أخرى وجب اعتبارُ أَقوى حالتيْهِ، فاعتُبِرَ بها إن تعذّر العُدول عنه إلى غيره ممَّا هو أَوفرُ صلاحًا، وإن استوى جهتاهُ أُلغي إن أَمكن إلغاؤه وإلّا تخيَّرَ، وهذا أَمرٌ لهارون جامعٌ لما يتعيَّنُ عليه عملهُ من أَعمالهِ في سياسةِ الأمَّة))[1]. وقد أوصاه بالإصلاح على الرغم من أن هارون نبي، ومهمة النبي في الأصل هي الإصلاح، لكن ذلك جاء على سبيل التأكيد[2] والتخصيص.

(١) تفسير ابن عاشور: ٩/٨٧-٨٨.

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (تفسير ابن عادل الحنبلي)، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت٧٧٥هـ): ٩/٣٠٠.

ثم حذره مما يمكن أن يتعرض له على الرغم من قصر مدة خلافته، فقال له: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فهو تحذير من الفساد ((بأبلغ صيغةٍ لأنَّها جامعةٌ بين نهي- والنهيُ عن فعل تنصرفُ صيغتُهُ أوّل وهلة إلى فسادِ المنهيِّ عنه – وبين تعليق النهيِ باتّباع سبيل المفسدين ... فلا جرَم أن كان قولهُ تعالى: وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ جامعا للنّهيِ عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعملُ المفسد وإنْ لم يكن مما اعتاده، وتجنّبُ الاقتراب من المُفسد ومخالطته))[1].

وهكذا جاء خطاب موسى لهارون تعبيرا عن مخاوفه من تقلبات بني إسرائيل.

المرحلة الثانية: بعيد عودة موسى من ميقات ربه، وقد ذُكر هذا الخطاب في قوله تعالى:

١. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ الأعراف.

٢. ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ طه.

ومن الواضح أن الآيات تحكي واقعة واحدة، وهي ما جرى بين موسى وهارون بعد عودة موسى من ميقات ربه، ومن الواضح كذلك أن الآيات من سورة الأعراف حكت الواقعة بإيجاز في آية واحدة، وأن الآيات من سورة طه حكت الواقعة بإيجاز كذلك، لكن مع شيء من التفصيل والتبسيط.

وبناء على حقيقة كون القرآن يفسر بعضه بعضا، وأن من أسلوب القرآن أنه قد يفصل في سورة أو آية ما أجمل في سورة أو آية أخرى، بناء على هذا يمكن أن نضع الآيتين بإزاء بعض لنتوصل بعد ذلك إلى كافة حيثيات الخطاب بالتسلسل الذي حكاه القرآن الكريم، وهذا يكون من خلال الجدول الآتي:

(١) تفسير ابن عاشور: ٨٧/٩.

خطاب موسى لهارون	
سورة الأعراف	سورة طه
وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ	
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ	
	قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى

خطاب هارون لموسى	
سورة الأعراف	سورة طه
قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ	قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى

يتبين مما سبق أن الخطاب يمكن أن يكون قد جرى على النحو الآتي:

١. إلقاء موسى الألواح.

٢. أخذه برأس أخيه وجره إليه.

٣. قوله لهارون: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى .

٤. قول هارون لموسى: يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ، إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ، ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

إن إلقاء موسى للألواح جاء نتيجة ((لما اعتراه من فرط الدهشة وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل، غضبا لله، وحمية لدينه))[(١)]، وهذا الفعل فيه إشارة إلى تأثره العظيم حينما شاهد قومه يعكفون على عبادة العجل، وكان ذلك على الرغم من أنه كان على علم بما اقترفه قومه، فقد أخبره تعالى بذلك، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ طـه ؛ لذا فربما كان هذا خطابا لقومه وليس لهارون، لأن غضبه موجه أساسا إلى الذنب العظيم الذي يستحق هذا الغضب الذي استدعى إلقاء

(١) تفسير الزحيلي: ٩/١١٠.

الألواح، و((لمَّا كانت تلك الألواح أَعظم مَعاجزِه، ثمَّ إنّه أَلقاها، دلّ ذلك على شدّة الغضب؛ لأنّ المرء لا يقدِمُ على مثل هذا العمل إلّا عند حصول الغضب المدهش))[1]. وهذا الغضب انصرف إلى عصيان قومه لله.

أما فيما يتعلق بهارون عليه السلام فإن أمره لا يستوجب ذلك، إذ إنه مجرد مخالفة من هارون لموسى فيما أوصاه به على النحو الذي ظنه موسى؛ لذلك توجه موسى بعد إلقاء الألواح إلى هارون، وباشره بخطاب يبلغه من خلاله عتبه الشديد ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، وقد ذُكر أن ((موسى عليه السلام إنما فعلَ هذا على غير استخفافٍ ولا عقوبة كما يأخذُ الإنسان بلحيةِ نفسه))[2]. ولقد صنع موسى ذلك ((ليسمَعَ العذرَ من هارون؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر))[3] فَهِمَ هارون هذا الخطاب ووعاه؛ لذلك جاءت أجابته مباشرة، فيما أخبرنا به القرآن الكريم في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ الأعراف، وهذا العتب الذي أفصح عنه موسى – فيما جاء في سورة طه – بقوله: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ طه.

وهنا يمكن أن نفهم أن موسى عليه السلام أدرك من خلال معرفته بقومه التي أشرنا إليها سابقا أن هارون عليه السلام لم يستطع ثنيهم عن الضلال؛ لذلك انحصر لومه في أنه كان بإمكانه اتباعه بعد ضلال قومه. وقوله أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى يشير ربما إلى محذوف يفهم من سياق الكلام، والتقدير: أفعصيت أمري أم كان لك عذر؟

وعلى هذا جاء خطاب الجواب من هارون، فأراد أولا أن يهدئ من غضب موسى، فقال له: ﴿يَبْنَؤُمَّ ...﴿٩٤﴾﴾ طه مستخدما (يا) التي تستخدم لنداء البعيد في إشارة إلى أن الغضب ابتعد بموسى عن مقام التفاهم، وقال: ابن أمّ ((وَعَدَلَ عَنْ (يَا أَخِي) إِلَى (ابن أُمَّ) لأَنَّ

(١) تفسير ابن عاشور: ١١٥/٩.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٣٩/١١.

(٣) تفسير الشعراوي: ٤٣٦٥/٧.

ذكر الأمّ تذكيرٌ بأقوى أواصر الأخوّة، وهي آصرة الولادة من بطنٍ واحدٍ والرِّضاع من لبانٍ واحدٍ))[١] زيادة في ترقيق قلب موسى وتعجيلا بسكوت غضبه.

وفعلا، فبعد أن قدّم هارون خطابه القائم على بيان علة عدم اتباعه، ثم بيان بذلِهِ أقصى ما يستطيع في ثني بني إسرائيل حتى وصل الأمر إلى أنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من قتله، ثم طلبِهِ الإنصاف، لتفويت الفرصة على الأعداء من استغلال غياب التفاهم بين النبيين الأخوين للتمادي بمعصيتهم: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ طـــه، ﴿...ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ الأعراف. ونلاحظ هنا غياب حرف النداء (يا) عن ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ وربما كان ذلك إشارة إلى أن هارون عليه السلام لاحظ استجابة من موسى لخطابه.

فبعد أن قدم هارون خطابه هذا نرى أن موسى عليه السلام تقبَّلهُ وعمل بمقتضاه وزاد عليه. فتقبُّلُهُ أن طلب لهما المغفرة من الله مبتدئا بنفسه، في إشارة إلى اعترافه بخطئه، والزيادة عليه أن دعا لهما أن يدخلا في رحمة الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ الأعراف. أي اجعل رحمتك ملازمة لنا، لا تفارقنا في الدنيا والآخرة. ((وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسهِ تأدّبا مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثمّ طلب المغفرةَ لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبَدَةِ العجلِ عن ذلك. وذكرُ وصفِ الإخوةِ هناك زيادةٌ في الاستعطاف عسى الله أن يكرم رسوله بالمغفرة لأخيهِ))[٢]

إن قصة موسى عليه السلام من القصص التي فصّل فيها القرآن الكريم في أكثر من موضع، وإن مما أشارت إليه القصة هو حضور واضح لهارون، مؤازرا موسى عليهما السلام. لكن الخطاب الذي جرى بينهما مما حكته الآيات القرآنية الكريمة يعدُّ محدودا إذا ما قيس بمجمل القصة، أو إذا قيس بالخطاب الذي جرى _ على سبيل المثال _ بين

(١) تفسير ابن عاشور: ١١٥/٩.

(٢) تفسير ابن عاشور: ١١٨/٩.

موسى وبني إسرائيل. وربما دلّ هذا فهم موسى وتقديره لقدراته وقدرات أخيه فطلب من الله تعالى أن يؤازره به، وربما دل كذلك على تفاهم وتناغم بينهما، بل ربما دلّ على فهم هارون لموسى الذي كان يشكو من قلةٍ في فصاحته، فما احتاجوا إلى التحاور بينها إلا بعد أن وصل حال قومهما إلى الإشراك بالله عز وجل.

هكذا تخاطب الأخوان النبيان، خطابا ساميا من أجل الرسالة فحسب، من أجل تطبيق أمثل لتكليف الله تعالى واصطفائهم بالنبوة، وحرصا على قومهما من الشرك والضلال.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم نوّع في علاقات الأخوة، فجعلها تارة بين أبناء نبي، وبين نبي وإخوته، وبين نبي وأخيه النبي، كما أكد اختلاف الأخوة، فمسلم مؤمن مسالم، مع أخيه الحاسد القاتل، أو مع الأخ الصغير الوديع، مع إخوته العصبة الماكرين، أو بين نبي مؤمن مع أخيه النبي المؤمن، وكلاهما مكلف في الدعوة إلى الله تعالى ... كل ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، فيما يلقاه من أهله وعشيرته، كما أنها دروس في الاجتماع وعلم النفس لكل من يقرأ القرآن الكريم ويتدبره منذ نزول الرسالة وحتى قيام الساعة.

المبحث الرابع

الخطاب بين أصحاب الجنة

حكى القرآن الكريم خطابا بين الإخوة أصحاب الجنة الذين ضربهم الله تعالى مثلا في سورة القلم، هذا الخطاب تضمنته الآيات القرآنية الكريمة الآتية:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَٰٓئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ القلم

هذه الأيات الكريمات تذكُر خبر أصحاب الجنة (البستان) الذين يعرف أهل مكة خبرهم، فقد كانت بأرض اليمن بالقرب منهم، في زمن ليس ببعيد، وخلاصة خبرهم

حسبما ورد في كتب التفاسير[١] أنه كان لرجل صالح جنة عامرة، يشكر الله عليها؛ فيعطي حق المساكين، وكان يعلن عن يوم جني الثمار، فيجتمع المساكين، فيكون لهم ((ما أَخطأهُ المنجلُ وما في أَسفلِ الأكْرَاسِ وما أخطأهُ القطافُ من العنب وما بقيَ على السَّباطِ تحتَ النخلةِ إذا صُرمتْ، فكان يجتمعُ لهم شيء كثير))[٢]، ثم مات الرجل فورثه أبناؤه، وعزموا على منع المساكين، وعقدوا أمرهم عشاء من غير أن يعلقوا أمرهم بمشيئة الله تعالى على جني الثمر في الصباح الباكر كي لا يشعر المساكين بهم، فأرسل الله تعالى ليلا طائفا على جنتهم فأهلكها، حتى إنهم حينما أقبلوا عليها صباحا ظنوا أول الأمر أنهم أخطأوا الطريق، ثم أدركوا أنهم ظلموا أنفسهم، وتضرعوا إلى الله تعالى أن يقبل توبتهم[٣].

لم يشر القرآن الكريم إلى أن هؤلاء كانوا إخوة، خلافا لما مرّ معنا سابقا من قصة ابني آدم، ويوسف وإخوته، وموسى وأخيه، بل صرّح بأنهم ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ فهم مالكوها، وقد عهد الناس نسبتهم إليها.

عدم الإشارة هذا ربما يعود إلى أن الأخوّة ليست العامل الفعال في هذه القصة، فالابتلاء ومنه الابتلاء بالنعمة قد يكون للفرد، وقد يكون للجماعة، التي يمكن أن يكون الرابط بينها من أي نوع، ومنه الأخوّة. ورابط الأخوّة المضمر في هذه القصة جاء عاملا مساعدا في زيادة عيار المحاسبة، فأخوّة الرحم أدعى من غيرها من الروابط في الاجتماع على الخير، كما أنها موجبة للبرّ بالوالدين، الذي منه الحفاظ على السيرة الحسنة لهما، وهو في هذه القصة البر بوالد أصحاب الجنة الذي كان يؤدي شكر الله، فأورثهم جنة عظيمة من فضل الله، مزكّاة مباركة.

---

(١) يرى بعض الدارسين أن هذه القصة أُولى القصص القرآنية نزولا.

(٢) تفسير ابن حيان: ٢٤١/١٠.

(٣) قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم دعوا الله وأَخلصوا، وعلم الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة، وكلُّ عنقود منها كالرجل الأسود القائم. وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيرًا منها... وتوقف الحسن في كونهم مؤمنين وقال: أكان قولهم: إنا إلى ربنا راغبون إيمانًا، أو على حدٍّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؟

كما أن هذه القصة جاءت تعريضا بالمشركين من أهل مكة، من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم، فأصحاب الجنة لم تغن عنهم أخوّتهم شيئا، ولا غناهم ولا اجتماعهم. وحال أهل مكة مثل حال هؤلاء، بل أشد؛ لأن الرابط بينهم (قَبَلي) لم يرق إلى (الأخوي).

فهذه قصة عن الابتلاء بالنعمة، والعبرة منها تتجه إلى وجوب شكر الله على نعمه، ومن غاياتها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما يلاقيه من قومه ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ...﴿١٧﴾﴾ القلم، فضمير الغائبين في قوله: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين من أهل مكة في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ القلم. ((والجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيا دعت إليه مناسبة قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ القلم؛ فإن الازدهاء والغرور بسعة الرزق المفضيينِ إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقعا من قديم الزمان أَصحابهما في بطر النعمة وإهمال الشكر فجرَّ ذلك عليهم شرَّ العواقب، فضرب الله للمشركين مثلًا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم))[1].

يمكن تأشير أربعة مشاهد تضمنتها الآيات التي قصّت خبر أصحاب الجنة: مشهد القسم، ومشهد الطائف، ومشهد الانطلاق، ومشهد رؤية الجنة. وكل مشهد تضمن خطابا من نوع معين.

في مشهد القسم يشير سياق الآيات إلى أن الإخوة التقوا عشيّة، وتمخض هذا اللقاء عن اتفاق مكلّل بالقسم المشدّد، حمله خطابهم الأول في هذه القصة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ القلم .

جاء قَسَم أصحاب الجنة ليشير إلى خطابٍ بينهم، فهو نتيجة لمقدمات سابقة، فقد اجتمعوا، ثم تحاوروا وتشاوروا، كما أنهم اختلفوا حتى اضطروا إلى القسم قبل أن يقرّروا، ويعضّد إشارةَ قسمهم هذا إلى خلاف بينهم قول أوسطهم لهم بعد أن حلت الكارثة بجنتهم : ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ القلم.

صيغة القسم امتازت بعدة ميزات، أولها أن المقسمَ به مسكوت عنه، وربما في هذا إشارة إلى تبعثر معتقدهم، أو أنهم ليسوا جميعا على درجة متقاربة من الإيمان، وإلى أنهم

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٧٩.

اضطروا إلى القسم، أيِّ قسم، ليبرهنوا على التزامهم بالاتفاق. وثانيها أن القسم جاء بصيغة الجمع، ليدل على اتفاق الجميع أخيرا على صيغة القسم، على الرغم من اختلاف رأيهم فيما ينبغي أن يكون سلوكهم، من بينهم ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ الذي كان يقول لهم في هذا المقام: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾... وثالثها أن صيغة القسم جاءت شديدة الإيجاز، دقيقة التحديد، فهي بكلمات قليلة حددت الفعل المطلوب ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ في الوقت المطلوب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

وتجدر الإشارة إلى أهل التفسير ذكروا معاني عدة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ القلم ، منها أن المعنى ((لا ينثنون عن ما عزموا عليه من منع المساكينِ))[١].

ومنها أن المعنى ((لا يستثنون من الثّمرة شيئًا للمساكين، أَي أَقسموا ليصرمنَّ جميع الثّمر ولا يتركون منه شيئا))[٢]، ومنها _ وهو ما يرجحه كثير من المفسرين_ أن المعنى ((لا يقولون إن شاء اللّهُ، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أَمرَه))[٣] ، وهذا المعنى الأخير استبعده بعض الدارسين[٤]، والمعنيان الأوليان تتسع لهما الآيات الكريمات، بخلاف الأخير.

وعلى هذا ف ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ القلم من جملة ما أقسم عليه الإخوة، بمعنى أنهم أقسموا على أن لا يحيدوا عن أمرهم، وأن يقطعوا كل ثمار الجنة ولا يبقوا منها شيئا، كما أن عليهم أن يقطعوا الثمرة مع كلّ ما يمكن أن يُنتفع به، فلا يبقى للمساكين شيء، لا غث ولا سمين. خلافا لما عهده المساكين من الأب الذي كان يترك لهم نصيبا من أصل ثمار

(١) تفسير ابن حيان: ١٠/ ٢٤١.

(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨١.

(٣) تفسير ابن حيان: ١٠/ ٢٤١.

(٤) خلاصة رأيه أن ذلك يأتي من جهتين: جهة النظم، فلو كان المعنى نفيُ تعليق فعلهم بمشيئة الله تعالى لكان مقتضى النظم (ولم يستثنوا)، وجهة المعنى، فلو أنهم لو قرنوا القسم بالمشيئة، لتحقق لهم ما أقسموا عليه، ثم إن ما يقسمون عليه فعل منكر لا يتطلب تزكية بالمشيئة. ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت: ١٥/ ١٠٩٣.

الجنة مع ما ينتفع به، فضلا عن أنه كان يترك لهم كل ما يمكن أن ينتفع به بعد جني الثمر.

إن ما حصل في هذا اللقاء من خطاب اتفاق بعد اختلاف بين الإخوة تبلور على شكل قسم، يُلزم الإخوةَ بموجبه الاجتماع على خطاب موحّد، موجّه إلى المساكين، بالفعل لا بالقول، مضمونه: أن الورثة ليسوا كأبيهم، فلا حظّ لكم بعد اليوم في الجنة. كما أنه موجه إلى الإخوة كذلك، مضمونه: أننا جميع في عزمنا. وهذا ما جعل جو الارتياح يسود بينهم، وهو ما جعل كل واحد منهم يرجع إلى مرقده وينام قرير العين.

وعلى الفور جاء الرد على خطاب هؤلاء، تولّاه رب المساكين، من دون أن يطلبوه منه، ومن دون أن يشكوا إليه. خطاب الرد من الله تعالى جاء عقابا فعليا من جنس ما عزموا عليه، صوّرته مشهدًا دالا الآيات من قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ القلم ، فهم عزموا على أن يصرموا كل ما في الجنة، فعاقبهم الله تعالى فأرسل عليها طائفا (وجاء هنا نكرة للإبهام تعظيما لما أصاب جنتهم)، أتى عليها من كل أطرافها طوافا، يدور عليها مرارا كي لا يذر شيئا إلا وأتى عليه، ثمرا كان أو غيره.

مِّن رَّبِّكَ (من) للابتداء، والضمير في رَّبِّكَ يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، في إشارة إلى أن الذي أرسل الطائف قادر على أن يرسل مثله على كفار قريش. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ هذه الكلمة لم تُذْكَر في القرآن إلّا في هذه السورة، وهي تعني انفصال شيء عن شيء، فهذا الطائف أسقط كل ثمارها، فلم يترك منها شيئًا، فكأن الجنة كلها بما فيها فصلت عن الأرض... وهم عزموا على الخروج صباحا في غفلة من المساكين، فأتاهم العقاب في غفلة منهم ليلا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

وبعد مشهد الـ (طائف) يقص القرآن مشهد خروج الإخوة مع أول الصباح، وهنا يبدو خطابهم متمما للأول، فهم مختلفون متوافقون، ففي البداية تعالت أصواتهم ﴿فَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ القلم، بعضهم ينادي الآخر، في إشارة إلى تفرقهم وتباعدهم، ولو أنهم على وفاق وعلى عزم رجل واحد لخرجوا من تلقاء أنفسهم و(انطلقوا) ولما احتاجوا إلى التنادي،

ويعضَد هذا ما نص عليه خطابهم من قولهم: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ القلم ، فتعدية الفعل ٱغۡدُواْ بحرف الجر (على) لتضمنه معنى (أقبلوا)[١]، ويُفهم من هذا أنه لم يُرَ من بعضهم الإقبال المرجوَ. وضمير المخاطبين في ﴿حَرۡثِكُمۡ﴾ فيه إشارة إلى تحضيض الآخر على الخروج للمشاركة بالفعل، ولولا هذا لقالوا (حرثنا). وقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ شرطٌ مستعمل في الاستبطاء، فكأنهم لإبطاء بعضهم في الخروج طوعا قد عدل عن قسمه وعزمه على الخروج[٢].

ويبدو أن هذا التنادي أدى دوره فحشد جمع الإخوة، ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ القلم ، انطلقوا زمرة واحدة، تخلوا عن حال السكون إلى حال حركة مسرعة[٣]، متقاربين حسّا ومعنى، يتسارّون فيما بينهم، ويتواصون بصوت منخفض لئلا يسمعهم أحد: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾﴾القلم.

وهنا ((أُسند إلى ﴿مِّسۡكِينٞ﴾ فعلُ النهي عن الدخول والمراد نهيُ بعضهم بعضًا عن دخول المسكين إلى جنّتهم، أَي: لا يترك أَحدٌ مسكينًا يدخلُها. وهذا من قبيل الكناية وهو كثيرٌ في استعمال النّهي، كقولهم: لا أَعرفنَّكَ تفعلُ كذا))[٤]. وعبَّر عن المنع عن إعطاء المسكين بمنعه من الدخول، فهم لا يمنعون العطاء فقط، بل يمنعونه من الدخول نهيًا مؤكدًا وبإصرارٍ على المنع (يدل عليه نون التوكيد الثقيلة)، وسكت عن طريقة منع الدخول ليشمل كل طريقة ممكنة، لا يُستثنى منها القهر.

اتفاقٌ بعد تفرّق، خطابٌ (منهم وإليهم: أننا جميعٌ)، لا يختلف كثيرا عن خطابهم في العشيّ عندما اجتمعوا على القسم بعد أن كانوا متفرقين. حالة من الارتياح مرة أخرى مرّت بهم هذه المرة صباحا، في العشيّ ذهبوا فناموا ملء جفونهم، وفي الصباح سَرَت

(١) ينظر: تفسير ابن حيان: ١٠/ ٢٤٢، وتفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٣.

(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٣.

(٣) (ط ل ق) يدلُّ على التَّخلية والإرسال، والانطلاقُ سرعة الذهاب في أَصل المحنة ينظر: مقاييس اللغة: ٣/٤٢٠، ولسان العرب (طلق): ١٠/ ٢٣٠.

(٤) تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٣.

فيهم حالة من الانتشاء، ترجمها سلوكهم: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ القلم . أقدموا في باكورة الغداة، دافعهم جني الثمار مع منع المساكين. و ﴿عَلَىٰ حَرْدٖ﴾ يمكن أن تتسع لكل المعاني التي أُشير إليها من خلال الاتساع الدلالي للفظة: ﴿حَرْدٖ﴾ ، فقد قيل: على منع، وقيل: على فاقة أو حاجة، وقيل على غضب، وقيل على انفراد[1]، فهم بكّروا ليمنعوا المساكين، لحاجة في أنفسهم، مغاضبين، منفردين دون المساكين.

ويزداد معنى ﴿عَلَىٰ حَرْدٖ﴾ اتساعا من جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه، ((أي بأن يتعلّق ﴿عَلَىٰ حَرْدٖ﴾ بِـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، أو بقوله: ﴿وَغَدَوْاْ﴾، فإذا علّق بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، فتقديم المتعلق يفيد تخصيصًا، أي قادرين على المنع، أي منع الخير أو منع ثمر جنّتهم غير قادرين على النّفع. والتّعبيرُ بقادرين على حردٍ دون أن يقول: وغدوا حاردين، تهكّمٌ؛ لأن شأن فعل القدرة أن يُذكرَ في الأفعال التي يشقّ على الناسِ إتيانها، قال تعالى: ﴿...لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ ...﴿٢٦٤﴾﴾ البقرة ، وقال: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ القيامة، فقولُه: ﴿... عَلَىٰ حَرْدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ القلم على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلانٌ لا يملك إلا الحرمانَ أو لا يقدرُ إلا على الخيبة))[2].

أما المشهد الأخير (رؤية الجنة) فقد شهد من أوله اتفاق الإخوة واجتماعهم على خطاب واحد. رأى الإخوة جنتهم الصريمة وهم جميع، ورأوها عيانا، فلم يأتهم خبرها من أحد؛ لأنهم أحكموا سرّيّة عملية الجني، وبكّروا والناس بعد نيام، وربما أراد الله تعالى أن يستكملوا نشوتهم، فيصدمهم وهم جميع، وهم في قمة عزمهم على الظلم، وهذا من باب العذاب الذي يأتي الظالمين بغتة وهم لا يشعرون، والعياذ بالله.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ القلم، اتفقوا جميعا اتفاقا مؤكدا، أكده القسم المحذوف و(إن) و(اللام)، ((لتنزيل أنفسهم منزلة من يشكّ في أنّهم ضالّون طريق الخَير لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم ففيه إيذانٌ بالتّحسّر والتندّم))[3] ... اتفقوا فقالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ ،

(١) ينظر: تفسير ابن حيان: ١٠/ ٢٤٣.
(٢) تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٤.
(٣) تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٦.

وقولهم هذا يتسع للمعنيين اللذين ذكرهما أهل التفسير، الأول: أرادوا بقولهم هذا أنهم أخطأوا جنتهم، فقد أنكروها لما رأوا ما أصابها، والآخر، وهو الأظهر، أرادوا أنهم ضالّون عن طريق الشكر[١]، وعن الصّواب في غدوّهم على نيّة منع المساكين[٢].

واستدركوا خطابهم الذي أجمعوا عليه بقولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ القلم، فكان خطاب إقرار منهم، عن طريق الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام، الخالية من التوكيد؛ لغياب أي شك لديهم في صحة تشخيص ما أصابهم، فقد بلغهم خطابُ الله عز وجل لهم عن طريق الطائف بيّنا واضحا؛ فما كانوا يملكون أمام هذا الخطاب الرباني المعجز إلا أن يقرّوا جميعا بأنهم (ضالّون) وأنهم (محرومون). وسكتوا عما هم محرومون منه ليدل عليه حالهم من أنهم محرومون ثمار جنتهم التي عزموا على حرمان المساكين منها، ولينفتح المعنى أكثر ليشمل حرمانهم من معية الله لهم ومن رعايته لجنتهم، ومن رحمته بهم، الأمر الذي كان لوالدهم وافر الحظ منه؛ جزاء شكره وعمله الصالح.

واستغل حالة الإقرار المجمع عليها ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾، وهو بمعنى: أعدلهم حكما، وأصوبهم رأيا، وأقربهم إلى الخير[٣]، فظهر صوتٌ من خطابه يذكرهم بما كان قد قال لهم قبل القسم بطريقة الاستفهام التقريري، ويحضهم على الطمع في رحمة الله من خلال أداة التحضيض (لولا): ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ القلم؛ قال لهم هذا تعضيدا لصواب إقرارهم، وتحضيضا لهم لعدم الوقوف عند حالة الإقرار، بل ينبغي التقدم خطوة أخرى نحو تنزيه الله عز وجل عن أن يكون شيء إلا بمشيئته، وجاءت الاستجابة من بقية الإخوة لهذا الصوت سريعة، في دلالة أخرى على وحدة كلمتهم هذه المرة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ القلم ، ((أرادوا إجابة تقريره بإقرار بتسبيح اللّه عن أن يُعصى أمرُه ... واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة لأنهُ خبرٌ مستعمَلٌ في التندّم، والتسبيح مقدّمةُ الاستغفار من الذنب، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٦.

(٢) ينظر: تفسير ابن حيان: ١٠/ ٢٤٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١٨/ ٢٤٤، وتفسير ابن كثير: ٨/ ١٩٦، وتفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٦.

النصر ... ويفيدُ حرف (إنّ) مع ذلك تعليلًا للتّسبيح الذي قبلهُ. وحُذفَ مفعولُ ظَلِمِينَ ليعمَّ ظلمهم أنفسَهم بما جرّوه على أنفسهم من سلب النّعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال))[1].

وعقب خطاب الإجابة على أوسطهم، تواجَهَ الإخوة جميعا، واحدهم قبل وجه الآخر، فليس من خلاف يستدعي التفرق، وأخذَ كلٌّ واحد يلوم نفسه والآخر والجميع، بأن كان على كل واحد منهم أن يقف في جانب الحق، كما أنه كان حقيقا على كل واحد منهم أن ينصر أخاه، بأن يعينه على اتباع طريق الحق، وأن يجتمعوا جميعا عليه، ولا يتركوا أحدا يتخلف عنه: ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ ﴾ القلم، ((والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الذميم، ولكنه من الإحساس الكريم؛ إذ إنَّهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملًا ينوء بكل واحد منهم ... فقد وجد منهم من دعا إلى الشر واستجابوا له ... وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة والانقسام، بل إنَّه في هذا لا ينافي الالتئام))[2].

وقد تلقّى كلٌّ واحد منهم خطاب لوم غيره بإقرار الملامة على نفسه وإشراك بقيّتهم فيها، فقال كلّ واحد مقولة لوم كأنها توحدت في خطاب واحد: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ ﴾ القلم، فأُسند هذا القولُ إليهم جميعا. وقولهم هذا: ﴿... إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ ﴾ القلم، فيه إشارة إلى أنهم توصّلوا إلى أن سبب ظلمهم الذي أقروا به آنفا هو طغيانهم.

إن هذا الوعي بالذنب كان لا بد له أن يوجَه أصحاب الذنب إلى غافر الذنب، فجاء صوتهم جميعا، يلهج بالرجاء، بابِ الله المشرع دائما أمام التائبين، الذي لا ينقضي خيره، ولا ينتهي عند حد فضله، ولا تنتهي عجائبه، متوجهين إلى ربهم الذي رزقهم تلك الجنة بخطاب يحمل رجاءهم في مغفرة ربهم، وثقتهم بفضله وعطائه في أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم التي احترقت في جزء من ليلة: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ ﴾ القلم.

(١) تفسير ابن عاشور: ٢٩/ ٨٧.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت: ١٠٥.

وختم القرآن الكريم هذه المشاهد لخبر أصحاب الجنة دون الإشارة إلى جواب الله تعالى لهذا الخطاب[١]، ليترك لفطنة القارئ ولتأمله في كتاب الله وتدبر آياته الوقوف على جواب الله تعالى على هذا الخطاب.

إن خطاب الإخوة أصحاب الجنة في القرآن الكريم على وجازة الآيات التي حكته، أبان أحوالا متباينة مما يكون بين الإخوة، من اختلاف الجميع ومن اتفاقهم، ومن اختلاف بعضهم مع بعض، ومن تغير أحوال خطابهم بين الموقف ونقيضه، وكيف يمكن الاتفاق على موقف واحد رغم التنوع الأهواء وتباين الاتجاهات.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم أبرز صورا لحال الإخوة في القرآن الكريم، كان من بغيتها تسلية النبي عليه الصلاة والسلام فيما يلقاه من أهله وعشيرته، وكذلك تبيين ما يكون بين المرء وأخوته لعامة الناس وخاصتهم؛ ليكون لهم موعظة ونذيرا.

كما أن القرآن الكريم نوّع في علاقات الأخوة، فجعلها تارة بين ابني نبي، وبين نبي وإخوته، وبين نبي وأخيه النبي، وبين أخوة من عامة الناس، ويتبين من هذا كذلك التنوع في الأعداد ليشمل أغلب أحوال الإخوة في أعدادهم.

وكذلك أكد اختلاف الأخوة، فمسلم مؤمن مسالم، مع أخيه الحاسد القاتل، وصغير وديع مع إخوته العصبة الماكرين، وذو جاه مع إخوته المحتاجين، الذين مكروا به أيام كانوا عصبة وهو صغير، ونبي مؤمن مع أخيه النبي المؤمن، وكلاهما مكلف في الدعوة إلى الله تعالى، وإخوة لأب صالح تعاونوا على الإثم ثم اجتمعوا على كلمة الحق ... ففي القرآن الكريم مجمل ما يكون بين المرء وأخيه من حال، وإن التعمق في إدراك هذه الأحوال يتطلب التدبر في الآيات من زوايا عديدة، فهذا البحث تعمق فيما جرى بين الإخوة من خطاب؛ وحلل مضامينه وأهدافه، فوجده متنوعا بتنوع حال الإخوة مع بعضهم، بل إنه يتباين كذلك تبعا لكل حادثة تقع للأخ مع أخيه، ورصد تقلبات هذا الخطاب ووجهاته وأهدافه المتباينة كذلك، ووقف على الكثير من الومضات الدعوية والفكرية والنفسية والاجتماعية التي سجلها البحث في أصل فصوله.

---

(١) ينظر: الهامش ١٠٧.

وختاما، فما كان في هذا البحث من صواب فمن فضل الله عز وجل فله الحمد وله الشكر، وما كان فيه من زلل فمن نفسي ومن الشيطان، أسأل الله تعالى السداد في القول وفي العمل.

Fraternity Discourse in the Glorious Quran

Lect. Dr.Maqbool Ali Alni'ma

Abstract

Discourse is considered one of the terms that received high interest by the ancients for many centuries. Their views about it were different according to sciences and arts from which that view was formed, such as explanation and its bases, religious sciences and their branches, as well as literature and its techniques.

Also, discourse has a clear presence in the contemporary and recent critical effort, whether Arabic or western. The view about it became different, perhaps because of an influence from the intellectual references from which that view was formed, such as lingual, semiotical, social, communicative, … etc.

This study deals with concept of discourse which it is present in the literary of jurisprudence principles. Scientifically, it supports the literary of recent criticism in a genuine way. It starts from this concept in order to observe its influence when we want to perceive the meanings in the Book of Allah.